*كمَثَل حبّة

تأمّلات فكرية

يمان ياسرجي

بسم الله الرحمن الرحيم

كمَثَلِ حبة

كَمِثْلِ حبة

تأملات فكرية

يمان ياسرجي

عنوان الكتاب: كمَثَلِ حبة
الموضوع: تأملات فكرية
تأليف: يمان ياسرجي
قياس الصفحة: A5
الطبعة الأولى: ٢٠١٨

يطلب من المؤلفة:
هاتف جوال ٠٩٣٣٥٤٣١٣٨- ٠٩٦٨٥١٤٨٢٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الإهداء

التماسًا لأهلّة الخير..

وطلبًا صادقًا للحكمة تسطع في دواخلنا المعتمة..

بحثًا عن مكامن النور..

واهتمامًا حقيقيًا بدواعي النماء والارتقاء..

أجدني مؤمنة بوجودِ سرٍّ لكلِّ بداية..

سرٍّ.. قد يكون بذرة.. أو حبة.. أو ذرّة..

أو كلمة..

فلنبتهجْ سوية بالإمساك بأول الخيط..

ولنحتفل معًا باكتشاف الطريق.

يمان

كمَثَل حبةٍ...

أنبتت سبع سنابل

نحبّه.. حُبًّا شديدًا.. حُبًّا جمًّا..

نحبّه، مهما أنكرنا.. مهما زهدنا.. مهما تعفّفنا..

نحبّه.. نقديًا كان أم عينيًّا..

أوراقًا ماليةً وقطعًا معدنيةً، ذهبًا وفضّةً، خيلاً مسوّمةً، ومساكن وممتلكات، و.. و.. وعلى أية صورة كان..

هكذا وصفَنا خالقُنا – وهو الأعلم بما خلق – قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾[الفجر].

وأكّد عزّ وجلّ أكثر وأكثر فقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)﴾[العاديات].

هو المال.. عصب الحياة المحرّك.. محورٌ هامٌ رئيسٌ، تدور حوله أفلاك الناس المعيشية..

به..— قلّ أو كثر— يعيشون، ليؤطر أصحابه اجتماعيًا في طبقاتٍ وفوارق متفاوتة..

ومن أجل الحصول عليه.. يعملون ليلاً نهارًا.. كلٌّ في مجال مناسبٍ لإمكاناته وقدراته..

حوله يتصارعون.. وفيه يتقاتلون.. وفي سبيله يختلفون..

في تحرّي كسبه.. من طرقٍ مشروعة، عبادةٌ خالصةٌ لوجهه تعالى..

وفي تداوله.. بيعًا حلالاً أو تداينًا مكتوبًا أو إقراضًا حسنًا أو تجارةً حاضرةً عن تراضٍ أو إنفاقًا من طيبِ الكسبِ في سرٍ و علنٍ ودون إسرافٍ ولا تقتير، قربةٌ إلى الله..

بينما كنزه.. ذهبًا أو فضةً أو على أي حال كان، وعدم إنفاقه في سبيل الله، مدعاة للعذاب الأليم، لأن في ذلك إيقافًا لحركة النماء واحتكارًا للفائدة..

وما حرصنا وإمساكنا.. إلا لأننا نحبّ العاجلة، ونؤثر الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى.

إنها والله لكثيرة أموالنا التي نحبّ..

وكثيرة أملاكنا التي نهوى، بكل ألوانها الموشورية الجميلة.. فمن يملك خزائن المال والذهب.. ومن يملك نعمتي الصحة والشباب.. ومن يملك قوة الجاه والسلطة.. ومن يملك ناصية الكلمة علمًا وفكرًا وأدبًا وتوجيهًا..

ونحن عندما ننفق أموالنا وأملاكنا – التي نحبّ – في سبيل الله، نصير كمَثَل حبةٍ.. كمَثَل بذرة قمحٍ صغيرة.. حجمها ضئيل الشأن لا يتجاوز بضع مليمترات، لكنه يختزل في داخله حجمًا هائلاً من الخير الوفير.. خيرٍ يتنامى.. يزداد.. ليصير سهولاً ممتدّة، وحقولاً مترامية، من السنابل – الذهب الأصفر – غير الرنّان –

إن الحبة الواحدة في عالم النبات والطبيعة تتفتّق عن عودٍ واحدٍ يحمل في أعلاه سنبلةً مليئةً بعددٍ من الحبات، ولكن الصورة التي أراد القرآن لفت النظر إليها لتكون مثلاً لأولئك الذين ينفقون أموالهم – في سبيل الله تحديدًا – صورة حسيّة خيالية تمعن في إظهار المبالغة لإيصال المعنى المراد.. إنها صورة حبة واحدة تتفتّق عن سبعة أعواد تحمل رؤوسها سبع سنابل.. وفي كل سنبلةٍ مائة حبة..

إن هذا التضاعف المطّرد من سبع.. إلى سبعمائة.. يصبح عند الحبة البشرية.. الفرد الإنساني.. تضاعفًا لا حدود له، إلا مشيئة الله الواسع العليم الحكيم.

عندما ننفق.. مما نملك، بل من جميع ما نملك، في سبيل الله، فلا يكتم صاحب العلم علمًا سئل عنه، ولا يتأخر قادرٌ على إغاثة ملهوفٍ أو تفريج كربة إذا استغيث به، ولا يمنع ماعونًا من استطاع، ولا يتوانى عن النصح والمشورة من استُنصِح واستُشير، تتكدّس

في خلايانا طاقة النماء والعطاء، نُشعُّ نورًا، ونتوهّج ضياء، ونزكو قلوبًا، وأجسادًا، وأعمالاً..

عندما ننفق..

تلتقي معارفنا، فتنمو أغصانها وتورق، وتزهر براعمها وتثمر..

تتشابك أيدينا وتتعاضد سواعدنا، تتضافر جهودنا، وتتعاظم قوانا..

تكبر مشاريعنا، تزدهر حضارتنا، تتعملق أحلامنا، وتتوسع آفاقنا..

عندما ننفق.. نصبح كمَثَل حبةٍ..

مصداقًا لقوله تعالى:﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة].

عمالقة في دنيا الأقزام

حين نكون محبّين.. وحين نعيش لونًا أو أكثر من ألوان الحب.. نصبح عمالقة.

حين نكون محبّين.. نزداد حجمًا.. نزداد طولاً.. وارتفاعًا..

نتطاول.. فتقرع رؤوسنا أبواب السماء، وتمتدّ أكفّنا إلى مداعبة النجوم ولمس الشهب.. نزداد اتساعًا.. وامتدادًا أفقيًا.. نتسع.. فتشرف عقولنا على قمم الجبال، وتطلّ عيوننا على كل الآفاق الممكنة في الجهات الأربع.

حين نكون محبّين.. نزداد جمالاً.. تنفتح نوافذ أفئدتنا على مصاريعها.. نصبح أكثر إشراقًا ونورًا وتألقًا.. فتهجرنا الظلمة ليل نهار، وتغادرنا الكآبة إلى غير رجعة..

تتضخم قلوبنا.. – لكن.. على أحسن حالٍ من الصحة – كمدينةٍ كبيرةٍ تجتاح مساحات أطرافها بأناقةٍ بالغةٍ مدروسةٍ.. فتتلاصق مع المدن الأخرى، وتتسع رقعة البقعة المأهولة لتعمّ البسيطة، ولتشمل كل العالم بأبنائه وأحيائه وأشيائه.

حين نكون محبّين.. نقف سدًّا منيعًا في وجه الشرّ والفتن والحروب.. وفي وجه العدو الأخطر.. الكراهية.. الكراهية اللعينة.. التي تنشر في الأجواء روائحها النتنة القاتلة، وتبثّ في الأجساد سمومها الحاقدة الفتاكة.. فتفتتنا، وتشوّهنا، وتقزّمنا.

الكراهية.. أحد وجوه استعلاء الأنا وتغطرسها.. الأبجدية الأولى.. في زمن الصراع – إما أنا، وإما أنت – لا في زمن الحوار – أنت وأنا –..

الصوت الوحيد.. في زمن إعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، وفي زمن كل حزبٍ بما لديهم فرحون.. السلاح

المتطور.. في زمن القتل والتصفية على الفكر أو المذهب أو الهوية.

ونحن حين نكون كارهين..... حين نقترف.. لونًا أو أكثر من ألوان الكراهية.. نصبح أقزامًا تافهين.. لئامًا حاقدين وصغارًا إلى حدّ كبير.

وفي زمن الكره.. في هذا الزمن القبيح.. تملأ الأقزام الشريرة وجه الأرض الطيب.. تتقاسمه مع الدماء والدمار.. مع الخلاف والاختلاف.. وتنتشر فيه كقنافذ تدمي أشواكُها كلَّ من يقترب منها..

في زمن الأقزام.. أن تخسر حبًّا وتكسب عدوّا.. أيسر مؤونة وأكثر سهولة من شربة ماء.

ويظلّ المحبون عمالقة في دنيا الأقزام.. ولكن.. ليس كل محبٍّ عملاقًا..

العمالقة فقط.. يمنحون الحب تحت كل الظروف.. يعيشونه عمرًا حقيقيًا مديدًا لا تربكه خصومة عابرة ولا ينقصه موقفٌ طارئ..

والعمالقة لا يكونون كذلك إلا إذا كان الحب مستمرًا عندهم، لا يتوقف عن السير باتجاه الآخر.. مهما علا نداء الأنانية.. لا يتبدد وجوده أمام تحدّي إثبات الذات، فنراه على أذيال الوفاق ونفتقده عند بوادر الشقاق..

عمالقة الحب الحقيقي نادرون..

كحجرٍ كريمٍ نادر.. استثنائيون كحدثٍ فلكي نادر الحدوث..

أنا أحبهم.. ولست منهم.. وأقدّرهم وأعجز عن الاقتداء بهم.. وأصفهم ولا أعرف الاتصاف بصفاتهم.. فهل مثلي أحد؟؟؟.

أيها.. الواعظ.. القريب

مع أنك نهاية كل حيٍ.. عاقلٍ أو غير عاقل..
إلا أن القليل جدًا من العقلاء، من يحسب لك حسابًا.. ولا أقول يحسب ألف حساب.
عذرًا منك.. فنحن نتحدث في كل شؤون الحياة.. المعيشة والمال.. الحب والزواج.. الأولاد والأعمال و.. و.. ونعيد الحديث ونكرره، نقلّب وجوه الأمور وزواياها، نسهب في التفاصيل والجزئيات أحيانًا، وقد نتفلسف أو نزيّن، وقد نشكو أو نتذمر، وقد نخفي أو نعلن.. وتظلّ أنت في منأى عنا وعن أحاديثنا.
قد نرتب لكل شيء في حياتنا، فنحسن الترتيب.. وقد نعدّ لكل أمر فنتقن الإعداد والاستعداد.. إلا أنت.. أيها الشأن الخطير إلى أبعد حد، الشأن

الأخطر على الإطلاق، فإنك تظلّ دائمًا في ساحة لاوعينا، إلى أن نلقاك بغتة..

شأنٌ، تكمن خطورته في كونه نهائيًا تمامًا.. وقطعيًا بشكل كامل.. كل شأن سواك، قابل للتعديل والتحوير، للمساومة والنقاش، إلا مجيئك المذهل.

نحن آسفون.. يا حضرة الموت المهيب.. ولكن لا ينفع الأسف أمام حضورك المباغت..

نحن غافلون.. ولكن لا تشفع لنا غفلتنا يوم تجيء، نحن خجلون منك.. فرغم قربك المدهش نحن لا نراك.. قريب أنت بقدر الزفير.. بقدر خروج النفَس وعدم عودته.. قريب ولا نراك أو نشعر بك مع أنك تدق لنا باستمرارٍ عجيبٍ أجراس الوصول، وترسل لنا بدأبٍ دعوات اللقاء، تنادينا دائمًا وبوضوح، ولكن بأسماء غيرنا.. فلا يكاد يصل الصوت إلى مسامع ألبابنا.. نحن.. نعرف تمامًا، أننا إذا أصبحنا فقد لا

نمسي، وإذا أمسينا فقد لا نصبح.. ولكن.. تظل هذه المعرفة ناقصة غير فاعلة.....

اليوم.. ها هو صوتك المجلجل يدوي في أذني "انتقل فلان بن فلان إلى جوار ربه".

ها هو مكبر الصوت في سيارة دفن الموتى يجلجل في أرجاء الحي، ها هو صوتك الدائم يقول لنا بخشوع "اليوم دور فلان.. وغدًا.. بل ربما بعد قليل، دورك أنت.. أتسمعني..؟ آهٍ يا ابن آدم.. كيف لا تسمعني؟ أنا أناديك بأعلى صوتي.. أناديك باستخدام التقنيات.. التي اخترعتها أنت ليكون صوتي أقوى وأوضح.. لكنك.. لا تريد أن تسمعني".

وذهبتُ للعزاء.. لم أكن أعرف أحدًا غير ابن المتوفى صاحب مخزن المواد الغذائية الكائن أمام منزلي... دخلتُ.. صافحتُ.. قلتُ:

عظّم الله أجركم في تحمّل هذه المصيبة والصبر عليها وسلّم لكم دينكم وإيمانكم فهما الأبقى لكم من عرضٍ زائل.

وجلست أنظر في الوجوه، وأسمع ما يدور من حديث.. راح أقرباء الفقيد يمتدحون خصاله، ويذكرون مناقبه.. كان رجل العلم بلا منازع.. كان حسن الخلق طيب القلب.. لم يزعج أحدًا ممن حوله أبدًا وكان يكتفي بمغادرة المكان إذا تأذى من ضجيج أو فوضى.. كان يعطي بسخاء مادي ومعنوي.. وكان.. وكان.. وكان..

وتساءلت في نفسي.. أين أخطاء الرجل؟! وأين مثالبه؟! أم أن جميع هذه الأحاديث تدخل في باب "اذكروا محاسن موتاكم".. فماذا لو كانت هذه المحاسن نادرة الحدوث، قليلة التواجد؟؟!!

وتذكرت عمّ صديقي، الذي كان بالأمس محور شكواه وتضجّره.. الرجل أساء لأولاد أخيه، وشتم

جيرانه، احتقر أصهاره، وظلم بعض أولاده بينما حابى البعض الآخر، كره زوجات أبنائه، وتأفف وضاق بأحفاده، أرغى وأزبد، أفحش وقذف و... و... هو لم يمت بعد، ولكنني تخيلت نفسي في عزائه.. وجوه كالحة واجمة، وشفاه زاوية صامتة.. يريدون أن يذكروا محاسن ميتهم.. ها هم يبحثون عن حسنة فلا يجدون..

وأمعنت في الخيال أكثر فأكثر.. أمعنت كثيرًا.. فإذا بي مجرد كلمات يتفوّه بها الآخرون..

نعم.. ها هو عزائي.. وأنا الميت الآن.. ترى ماذا سيقولون عني؟؟!! أم تراهم سيصمتون، بوجوهٍ غائمة؟ أين محاسني المذكورة وغير المذكورة..؟ إنهم لا يعرفون أنني أحسنت في كذا يوم كذا، وأنني أعطيت فلانًا بمناسبة كيت.. وأنني.. وأنني..... صهٍ.. لمن تعدد مآثرك يا فتى؟ صحيح أنهم سيكونون الدليل عليك ليقال وجبت، ولكنّ الحساب الدقيق عند من

يعلم السر وأخفى، عند الديّان، الذي لا يغفل عن مثقـالِ ذرةٍ كسبٍ لك أو عليك.. وبعد..

أيها الموت المهيب.. أيها الحدّ الفاصل بين العمل والحساب.. أيها الحدّ الذي تنتهي عنده كل الإرادات والرغبات البشرية.. لا.. لم تعد تفيد أحدًا كلمةُ "ارجعونِ.. لعلي".. فلا رجعة بعد الآن..

كل احتمالات العودة والرجوع، وكل فرص الإياب والتوبة، وحتى إمكانية الصحوة واليقظة.. تنتهي جميعها في لحظة واحدة.. ينتهي كل ذلك ويصير عجزًا.. بل عدمًا لا وجود له.. فما أحرانا أن نفهم الدرس كما فهمه الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: "كفى بالموت واعظًا يا عمر".

وعود على بدء، فلنجعل النهاية أمام أعيننا دائمًا.. النهاية التي سنصل إليها، فتسلبنا القرار والمبادرة والحراك.. ولنغتنم – قبل ألا نغتنم – الحياة والصحة

والشباب والفراغ والغنى.. ولكن نغتنمها بماذا؟؟ بالملذات؟؟ فإن هادم اللذات لنا بالمرصاد..

أم بالأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة؟؟ تلك التي تصير جواز سفرٍ نسلّمه عند النقطة الحدودية الوحيدة بين الدنيا والآخرة.. لتزفنا الملائكة بعد ذلك إلى رضوان وجنات..

ولنا الخيار الآن.. فقط.

حتى لا تكون مطايانا ضعيفة

وإذا كانت النفوس كبارًا

تعبت في مرادها الأجسام

بيت شعر قديم نظمه مالئ الدنيا وشاغل الناس المتنبي يقرر فيه أيَّ شأنٍ تفاعلي يتبادله النفس والجسم في مسيرة حياة المرء.

كانت إذ ذاك أجساد الناس قوية البنية.. سليمة.. معافاة.. لم يتسرب إليها داء الضعف بعد، فإذا مرضتْ يبقى المرض طارئًا عارضًا يزول بالعلاج لتعاودهم الصحة فيعودوا بعد ذلك إلى ميدان الحياة مدججين بالعافية.

كلنا يعرف أن النفس تؤثر في الجسم تمامًا كما تتأثر هي به، فإن أصابته علة أو سقم اعتراها الركود والتشتت واعتصرها الألم والضيق حتى يبرأ فتسترجع

نشاطها وفعاليتها.. كذلك فإن استبد بالنفس همٌّ أو قلقٌ، تضعضعت الوظائف الحيوية واستنفرت السيالات العصبية، واستشرت الأمراض النفس عضوية، فلا يسترد الجسم توازنه حتى تزول المحنة وتتبدد الشدة.

وفي هذا العصر الهمجي الهائج.. صارت أجسادنا مستهدفة مستهلكة متهالكة.. قد كثر المتآمرون عليها وأحاط بها الغزاة والأعداء من كل جانب.. يتقدمهم التلوث البيئي بجميع أشكاله، الممتد من الهرمونات والحافظات والمنكهات في طعامنا وشرابنا، إلى الغازات السامة والمؤذية في هوائنا، إلى السموم الكيميائية في أدويتنا، إلى الضجيج المسرف في شوارعنا، إلى الأمواج الكهرطيسية في أثيرنا، إلى القذارة في شوارعنا، ويوآزرهم في الضغط على سلامتنا العادات العصرية السيئة في سلوكنا،

والصراعات على كل صعيد، فردي وجماعي ودولي، والتخلخل الاجتماعي والأسري في كياننا..

لقد أصبحنا نرى تحت كل سقف مكابدة، ونسمع في كل منزل شكوى.. صار كل ذلك يستنزف طاقتنا الجسدية ويثقل كاهلنا بما ننوء بحمله فتتعب الأجسام وتزداد رهقًا.. ويحيلها الخور والوهن إلى عاجزة عن أداء أبسط واجباتها تتهالك فوق أقرب مقعد، باحثة عن راحة مستمرة، قد أبت مغالبة الأحلام واكتفت بإرسال الطرف إلى ما تريد، ولكن:

وما نيل المطالب بالتمني

ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

فأي غلابٍ يرتجى منها.. وهي لائذة بعجزها الذي أغلق عليها منافذ المثابرة؟ أي سعيٍ يُنتظر منها وهي مكتفية بمتاعٍ رثٍ وحطامٍ بال، قد أهمتها متعٌ حسية لاهبة لا يزيدها الإقبال عليها إلا ظمأ أكبر وتوقًا أشد، ثم لا ينطفئ لاعجها أبدًا.

ترى هل نستطيع إنقاذ أجسادنا من التردي إلى قيعان المرض والخور والتهالك بمقاومة جميع الأسباب الضارة أم أننا تعايشنا مع كل ما من شأنه الإضرار بنا؟

ترى هل نقدر أن ننجو من طوفان ضعف المناعة المدمر؟؟ أم أننا استسلمنا لأهواء الجشعين الذين يسوقون لنا المرض في حلة زاهية قشيبة؟ فنغدو ضعفاء، متهالكين، أشباه عجزة، نتململ في مواقعنا ونحن نرنو إلى شرفٍ كبيرٍ ألحقه بنا بارئنا حين جعلنا خير أمةٍ أخرجت للناس.

آهٍ ثم آه.. لو أدركنا كم تكلفنا أمراضنا وعللنا ومشاكلنا !.. وكم يكلفنا عبثنا وانصرافنا عن الحق ولهونا !.. كم يستنزف ذلك من ميزانيتنا من أجل العلاج والتداوي، أو من أجل السرف والمفاخرة.. إذًا لأدركنا حجم الخسائر المادية.. التي نتكبدها حين لا نعير ذلك حق الاهتمام، فنخسر الفرص المواتية للإنفاق على تطوير بحث علمي هام أو إشادة مرفق

مهم من مرافق عامة مفصلية أو إنجاز مطلوب على أي صعيد.

أظن بعد ذلك أننا يجب أن نفهم أن إعداد ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل تعني إعداد كل أنواع القوى؟؟.. قوى تختار الصواب وتوجّه إليه دائمًا وأبدًا، وقوى تنفّذ الصواب وتمارسه في يومياتها.. كما تعني إعداد كل قوانا الجسدية والنفسية والروحية والعقلية إعدادًا إيجابيًا صحّيًا.. يتضافر ذلك كله مع قوة الآلة من عتادنا الحازم ومطايانا العتيدة؟؟

وأول المطايا وأقربها وألصقها بنا أجساد قوية متعافية نبني ببنائها عقولًا واعية متفتحة، ليصير كلاهما.. العقل السليم في الجسم السليم خير المطايا وأفضل العتاد.. نقاوم بهما، كل ما يعترض طريق انطلاقنا باتجاه القمم.. ونملك معهما، كل نجاحٍ نحرزه ومجدٍ نبنيه.. وكل تقدمٍ نصنعه ونماءٍ نحققه.

من أسرار الحياة

قانون الجذب.. سر الحياة العجيب

قالوا في كتاب "السر/تأليف:رواندا بايرن":

إن أبسط طريقة لفهم السر هي اعتبار النفس مغناطيسًا، وأن هذا المغناطيس سيقوم بجذب الأشياء نحوه.. كذلك الأفكار تمتلك طبيعة مغناطيسية توجد ضمن ترددات خاصة بها، وعندما نفكر، فإن هذه الأفكار، تُرسل إلى الكون، وتجذب مغناطيسيًا جميع الأشياء المشابهة الموجودة على التردد نفسه.. وكل ما يصدر يعود لمصدره.. ومصدر هذا كله هو أنت.. فأنت أقوى برجٍ إرسال في الكون لأن إرسالك هو الذي يشكل حياتك.

إن قانون الجذب هو أحد قوانين الطبيعة.. وعندما تركز أفكارك على ما تريد فإنك بذلك تستدعي ما ترغب به مستخدمًا أعظم قوة أو سلطة في الكون.

أما ابن عربي.. فيعتبر أن تغير أحوال الإنسان يظهر مع تردد أنفاسه، فإنه عندما يخرج النفَس من الإنسان يحمل معه صورة حاله (أفكاره ورغباته)، أو استعداده الحالي (سلبًا أو إيجابًا) ، فيطّلع الله سبحانه وتعالى عليه.. فيتجلى على قلب العبد، ويفيض عليه بحسب ما يقتضيه استعداده في ذلك الحال، فيعود إليه النفَس الوارد تحت حكم أحد أسماء الله تعالى.. أي أن كلّ نفَسٍ يحمل إلينا حكمًا من الله تعالى بتجلي أحد أسمائه الحسنى ، ذلك الاسم، الذي يقضي حاجتنا بطلبٍ منا أو دعاء.. و يتم ذلك عن طريق – قنوات صاعدة وأخرى نازلة– هي رقائق بين العبد وربه.. الصاعدة، تعطي حال العبد في كل لحظة واستعداده وما يتطلبه من حاجة إلى اسم إلهي معين أو أكثر..

والنازلة، هي تحكمات تؤثر بها هذه الأسماء على العبد.. قال تعالى:﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (١١٠)﴾[الإسراء].

وهكذا يكون العلم بالله سبحانه وتعالى على قدر استعداد الإنسان وعلمه بنفسه ، وصلته بربه تكون عن طريق نفسه، فإذا كانت نفسه مجهولة لديه انقطعت هذه الصلة أو ضعفت.

خيرات الكون.. أم خزائن الله

تعلم الكثيرون العملية الخلاقة الموجودة في السر والتي تتم عبر خطوات ثلاث:

أولاً – اطلب

ثانيًا – آمن

ثالثًا – تلقّ (استلم)

وسيقوم المارد – قانون الجذب – بممارسة نفوذه الكوني، والاستجابة للأفكار.

يقول ميوري: إن العناية الإلهية لن تبقى غير مؤثرة ما دام الإنسان يؤمن بها.. ولهذا فقد كانت أكثر الأسئلة التي يلقيها من يستعملون السر هي: ألن ينفد مخزون الكون يومًا؟؟ ألن يتراكض الجميع على خزائنه لينهبوها؟؟.

ويردّ مايكل برنارد بيكويث فيقول: تعاليم السر تؤكد لنا وجود أكثر مما يكفي لكل واحد منا ، وأن خيرات العالم تكفي الجميع ، وأن هناك أكثر مما يكفي من القوة والمحبة والبهجة.. أكثر مما يكفي من الأفكار الخلاقة.. وأن لا حدود لما يمكنك جلبه لنفسك سلبًا أو إيجابًا لأن قدرتك على التفكير غير محدودة.

أما ابن عربي.. فيقول: الفيض والعطاء من الله تعالى مستمر دائمًا ودون انقطاع.. لكن نوعيته يحددها الإنسان نفسه.. بحسب طلبه، وحاجته، وتفكيره.. سواءً أكان عطاءً ماديًا يتطلع للحصول عليه، أو

علمًا ومعرفةً يجتهد في طلبهما، أو جاهًا ونجاحًا يسعى إليهما، أو أي رغبة كائنة ما كانت.

وليست قصة النبي يوسف عليه السلام إلا أكبر دليل على ذلك.. فقد قال لربه حين طلب منه أن يبعده عن كيد النسوة..

"رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه"

وكأنه قد اختار السجن بإرادته، وكان حريًا به أن يطلب من ربه القادر على كل شيء أن يخلصه من كيدهن، بما يراه مناسبًا.. فلا يكون لتهديد امرأة العزيز بالسجن أي شأن يذكر.. ولعل المقولة الحكيمة التي تقول " ألسنة الخلق أقلام الحق" تنطبق على قدرٍ كبيرٍ مما نجلبه لأنفسنا من خيارات.

يقول تشارلز هانل في كتابه (نظام المفتاح الرئيسي):

إن هناك دعمًا غيبيًا لأي رغبة تمرّ في ذهن الإنسان، هذا الدعم، يمنح الظروف المحيطة بالإنسان التناغم الكامل و الانسجام التام..

هم قد عرفوا ذلك الآن..

ولكن رسولنا الحبيب أمرنا أن ندعو الله ونحن موقنون بالإجابة.. وأن نكون بما في يد الله، أوثق منا بما في أيدينا.. وأن نبتغي الخير فنلقاه.. قال: اطلبوا الخير دهركم كله.. وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم.

لا تأس على ما فات..

ولا تجذب المزيد من المصاعب

قالوا: إذا احتفظت بضغائن أو لُمت أحدًا على شيء ما من الماضي فأنت تؤذي نفسك فقط.. وإذا استرجعت أحداث حياتك الماضية وركزت على الصعوبات التي مررت بها فإنك ستجذب مزيدًا من المصاعب إليك الآن.. أفلتها.. دعها تذهب بعيدًا مهما كانت.. وافعل ذلك من أجلك أنت..

أما نحن فقد تعلّمنا من الهادي المصطفى ألا نلوم أحدًا.. وذلك من سيرته الشريفة ومن تعامله مع الآخرين.. روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عشر سنين وأنا ابن ثمان سنين في السفر والحضر، واللهِ ! ما قال لي أفٍّ قط، ولا لشيء صنعته: لمَ صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيءٍ لم أصنعه: لمَ لمْ تصنع هذا هكذا؟ ولا لشيء صنعته: أسأت صنعته، أو لبئس ما صنعت! ولا عاب عليّ شيئًا قطّ، ولا أمرني بأمرٍ فتوانيت عنه ، أو ضيعته، فلامني، ولا لامني أحدٌ من أهله إلا قال: "دعوه ، فلو قُدِّر – أو قال: قُضي – أن يكون كان".

ثالوث السعادة.. شكر وصبر وذكر

قالوا:

انظر حولك.. لاحظ الأشياء الجميلة والرائعة المحيطة بك، واشكر الله عليها، ومن جانب آخر.. لا

تصرف طاقتك الذهنية على التذمر وإبراز الأخطاء في كل ما لا يعجبك في حياتك..

اشكر الله على كل شيء تريده لكي تستطيع الحصول على مزيدٍ منه.

إن التفكير في السعادة واصطناعها والتحدث بها، لهي القاعدة الأولى لجلب السعادة.. والإيحاء الذاتي الإيجابي هو أن يتحدث الإنسان دائمًا عما هو فيه من نعم، على أنها سبيله إلى السعادة، وهكذا يكون التحدث بنعم الله إيحاءً ذاتيًا للنفس.

ومن الحكمة ألا تفكر فيما حرمتك الدنيا إياه، بل فكر فيما وُهِبَ لك.

قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:

"إنما يبتلي اللهُ من عباده من شكر وصبر وذكر"

يالها من أفعال ثلاثة.. أساسية.. هامة.. شَكَرَ النعم، وصبَرَ على الهمّ والهِمَم، وذَكَرَ المنعم.. فملك مفاتيح العطاء والسعادة.. ومتّن العلاقة بينه وبين ربه..

يقول د. جو فيتال: تقوم الأفكار بإرسال إشارة مغناطيسية جاذبةً أشباهَها رجوعًا إليك.. لذلك ومن أن أجل أن نعيش في بحبوحة النعم.. أمرنا تعالى قائلاً: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾[الضحى].

نعم.. حدّث وحدّث و حدّث.. لتدخل بهجةً إلى قلبك، تجعلك تتذوق طعم السعادة والامتنان.. وهل هناك أجمل من قوم يتحادثون عما أنعم الله عليهم من نعم لا تعد ولا تحصى..

هل أجمل من أن يتخلل الحديث الطيب هذا عبارات من الشكر الحقيقي، والعرفان، ليتحول القول اللساني للشكر إلى فعلٍ يناسب كل نعمة على حدة.. فمن حفظٍ لها ورعاية.. إلى بذلٍ و عطاءٍ للآخرين.. فاتحين بذلك الأبواب على مصاريعها استقبالاً للمزيد، تحقيقًا لوعد الله الكريم المؤكد إذ قال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾[ابراهيم].

قوة الأفكار.. قرارٌ واختيار

إذا كان السر الذي يتفاخرون بمعرفته هو معرفة قانون جذب الأشياء.. جذب كل شيء للإنسان بدءًا من الريشة كما يقولون وانتهاء بعشرة ملايين دولار.. مؤكدين أن كل ما يدخل حياتك ناتج عن جذبك، بسبب تصوراتك التي تحملها في رأسك، وبسبب ما تفكر فيه بالضبط..

ولقد أخبرنا القرآن الكريم في العديد من آياته كيف يرتد إلينا طيف أفكارنا وقوة اختياراتنا لتؤثر على سير حياتنا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر..

قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا (٧)﴾[الإسراء].

وقال أيضًا: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا (١٠٤)﴾[الأنعام].

وقال: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا (١٥)﴾[الإسراء].

وقال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾[النمل].

وقال: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)﴾[العنكبوت].

وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)﴾[فصلت].

وقال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١)﴾[النساء].

وقال: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾[الروم].

وقال: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)﴾[الفتح]

وقال: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ (١)﴾[الطلاق].

وقال: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ (٣٨)﴾[محمد].

وهكذا.. فالإحسان دومًا لأنفسنا، والإساءة والبغي عليها.. الإبصار –كفعلٍ يوصل إلى الفهم والوعي– لأنفسنا، والعمى – القصد في التعامي عن الحق– عليها.. الاهتداء – إلى طريق الفلاح والنجاة– لها، والضلالة – الإصرار على اقتراف المهلكات والذنوب– عليها.. العمل الصالح – الذي يصلح شأنها – لها، وكسب الإثم ونكث العهد وظلم النفس عليها.

وقد فهم علماؤنا هذا..

فانسابت الحكمة على أفواههم بعبارات منها:

- من استعدَّ.. استمد
- جاهد.. تشاهد

- المعونة على قدر المؤونة

أقوال بليغة حكيمة.. تضع المرء أمام مسؤولية نفسه تمامًا.. فالاستعداد منك، ليكون المدد منه.. والمجاهدة منك، ليمنحك بعدها مشاهدة أسرار الكون.. وتخزين المؤونة المناسبة لشخصك منك، لتأتيك بعد ذلك المعونة منه جل وعلا.. إنها أولاً وأخيرًا اختيارات، أنت تختارها في كل لحظة في حياتك.. وها هو القرآن يؤكد من جديد في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)﴾[آل عمران]

السر.. وقضية التغيير

قالوا:

لا يهم كثيرًا من أنت أو أين أنت..

يستطيع السر هدايتك لما تريد، لأن السر صنع من أجلك.. وعند تعلّمك له ستعرف كيف تمتلك.. أو تكون.. أو تفعل أي شيء تريده.. واعلم أن كل

فكرة من أفكارك تستطيع التحول إلى حقيقة، ذلك أنها قوة .

أعود فأقول بأنهم يدعون أنهم قد عرفوا السر الذي يمنحهم خيرات الكون ومباهجه ولكنهم قد استعملوه ليكسبوا المزيد والمزيد من دنياهم فطلبوا به الثروة والحياة الرغيدة والأماني الطيبة.. أما نحن.. فقد وصلنا هدي ربنا الحبيب من خلال آياته العظيمة في قرآنه الكريم.. قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾[القصص].

ها هي أوامر أربعة تنتظم متوازية في أهميتها لتوازن لنا الحياة كما يجب أن تكون.. مأمورين بذلك أن نحسن التدبر والتفكر.. فاتخاذ القرار..

ومعنى أن أعلم (ما آتاني الله) أي أن أفهم نفسي، وأؤمن بقدراتي، وأعرف مواردي، وأدرك النعم التي

تحوطني، فأعمل بها عملاً صالحًا خالصًا لله، أبتغي به أن أصلح بإحسانٍ شأن دنياي ودنيا من حولي دون أن أغفل عن آخرتي، مبتعدة بوعي حقيقي كامل عن كل ما يفسد ويضر.

وهذا الوعي والفهم يتطلبان المبادرة للتغيير نحو الأحسن والأفضل، مع معرفة أن أي تغيير في الأفكار لن يرافقه مباشرة تغيير للواقع الذي نعيشه.. سيبقى دائمًا مجال زمني محدد يفصل (الأفكار المتطورة) عن (واقع متخلف)، هذا الفاصل الزمني – بانتظار ما سيحدث – مهم جدًا، لأن سلوكنا فيه سيسرع أو سيبطئ من ظهور الواقع الجديد الذي نريده.

أكثر الناس يحاولون تغيير الظروف الخارجية فقط.. معتقدين بذلك أنهم قد فعلوا شيئًا، ولكنهم لا يحصلون على نتيجة مرجوة.. إنهم لا يشعرون أن كثيرًا مما في أنفسهم هو الذي يعطي حق البقاء لهذا الواقع الذي يريدون أن يزول، وما ذاك إلا لأنهم لم

يطبقوا سنة الله في أرضه..قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١١)﴾[الرعد].

أخيرًا.. إن الذي يعلم أن الحياة خاضعة لسنن وقوانين عامة تنطبق على كل البشر يمكن كشفها ومعرفتها – علمها من علمها وجهلها من جهلها – يتسم سلوكه بالإيجابية والإقبال على العمل بجدٍ مستفيدًا من التجارب والوقائع التاريخية البشرية، وكلما تعود الإنسان التعامل مع السنن ازداد ثقة وطمأنينة.

ماذا لو فقدنا حاسة الحب؟!

بحواس خمس نكتشف العالم الخارجي من حولنا.. ولكن وبحواس أكثر من ذلك بكثير، ندرك ونرتبط بعوالمنا الداخلية التي تمنحنا الإحساس بالواقع الخارجي وبالوعي بالذات جسمانياً وعاطفياً.

نحن نسمع، نبصر، نشمّ، نتذوق، ونتلمس.. فتتحول الأشياء والموجودات إلى معلومات تتكدس في أدمغتنا.. نحن نرى نبصر ننظر نحدّق نتأمل ونرنو.. لتفتح هذه الأفعال المختلفة _ وربما أكثر منها _ نافذة العين على مرئيات لا حصر لها، وتعدّدُ الأفعال يؤدي بدوره إلى الغنى البصري الصوري الذي يتراكم ليغني الحياة.. والأمر نفسه ينطبق وبدراسة متأنية على كل حاسة على حدة.

ولأن لكل الحواس عتبات حدّية (عليا ودنيا) تؤدي مهمتها المعرفية بينهما بالشكل الصحيح الأمثل، فهي تعمل بكفاءة حقيقية عندما يكون العضو المعني بالحاسة سليماً، معافى من أي قصورٍ أو تشوّهٍ أو علّة.. وعندما تكون الظروف المحيطة مثالية الشروط كأن تكون الرؤية واضحة، بعيداً عن العتمة والضباب.. وكأن يكون الاستماع كامل التركيز، دون تشويش متعمّد بضجيج أو صخب.

ويأتي السؤال الأكثر مرارة.. ماذا لو فقدنا إحدى الحواس؟.. أي بديلٍ نحتاجه تعويضاً لها؟ أي جهازٍ اصطناعيٍ يحل محلها؟ أي تجاوزٍ وتغافلٍ واستغناءٍ عن دورها يمكننا أن نؤديه ونقبله؟ أي سلوكٍ يوصلنا إلى منافذها يمكن أن نمارسه؟.. وأترك السؤال المرير قليلاً لأسير مع العلماء في مسيرهم الحثيث إلى تصنيف المزيد والمزيد من الحواس واتخاذ الأسماء والدرجات

والوظائف لها.. فمن الحاسة الحركية إلى حاسة الحدس إلى.. إلى.. إلى حاسة الحب..

وأمرّ بها على عجلةٍ من أمري لأجدها تغوص في قرار بعيد.. مركزي التواجد عميق الحضور تشعُّ كالماسة على كل الموجودات لتضفي عليها حالة الشعور بها ولتنعكس بدورها إحساساً بالمتعة.. فأنا سأستمتع بعملي مهما كان شاقاً إذا كنت أحبه.. وسأستمتع بالصحبة والصداقة إذا كنت أحب من أصاحب.. وسأستمتع بأيامي إذا كنت أحب الحياة.

وبما أن الناس يتفاوتون كثيرًا في سلامة أعضاء حواسهم وفي حدود إمكانياتها.. وفي ظروفهم المعيشية وبيئاتهم.. كذلك يتفاوتون في طبائعهم وأمزجتهم وأحوالهم الانفعالية.. ولأن فعل الحب من مهام القلب تتعدد صور الحب بتعدد أنواع القلوب من مرهفٍ رحيم إلى جلفٍ قاس، ويتباين عطاء العاطفة بتباين أصحابها، وتتأثر التجربة الشعورية بظروف

البيئة والمجتمع حيث يساهم الانفتاح المادي والمعنوي مع تحقق استقلالية الأفراد في الأسرة وكثرة المستهلكات وتربعها على عرش الضرورات بسبب شدة إغراء الإعلانات.. في تغريبها واغترابها.. كما تتأثر بشروط العلاقات المحكومة بأدوات العصر والتقنيات الحديثة من حيث سهولة الاتصال بالآخر عن طريق الخليوي والنت دون قيد أو شرط.. لتغدوَ أشد تعقيداً.. وأكثر تكلفاً.. وأقصر عمراً.

وأعود بكم إلى سؤالنا الهام..

ماذا لو فقدنا حاسة الحب؟؟!! ألا تصبح الحياة مجموعة من الواجبات الثقيلة تستثقل النفس أداءها؟ ألا تصبح الارتباطات البشرية على وجه الخصوص والعلاقات الإنسانية على وجه العموم قيوداً وأغلالاً يرسف في أصفادها الناس؟ قد نتراحم دون حبّ.. ونشفق ولو كنا نكره.. ونعطي مرغمين بسيف الحياء أو بغيره ولكن المتعة الحقيقية والبهجة العميقة تغادرنا

إلى أقاصي الحدود.. تنأى عنا فاجعة مفجوعة في رحيلٍ طويلٍ.. فنحيا دون سعادة ونتعايش دون سرور.

ولعل النبي الهادي أراد أن يعلمنا قيمة الحب عندما قال له أحد الصحابة: يا رسول الله.. إني أحب فلاناً.. قال له: هل أعلمته؟ قال: لا.. قال: اذهب فأعلمه أنك تحبه.

وإذا كنا نبصر ونسمع ونتذوق ونشم ونحس ونتحرك و.. و.. و..

فلماذا لا نفعل كل ذلك ونحن نحبّ؟؟؟

احذروا الكلمة القاتلة

في فصائل النبات أنواعٌ قاتلة تستدرج الحشرات إليها بلونٍ جذابٍ أو برائحةٍ مميزة، ثم تقبض عليها لتلتهمها.

ومن الحيوان أنواعٌ مفترسة تفتك بمن هو أضعف منها من الحيوانات.. وقد يتعدى افتراسها على بني البشر فتسبب لهم الحوادث المؤلمة.

حتى في عالم الجماد.. قد تنهار جدرانٌ أو تتهاوى أحجارٌ أو تتصدع صخورٌ فتسبب الموت للأحياء وتدفنهم تحت ركامها.

ولكن.. أسوأ القتَلة الإنسان..

حين يبسط يده لقتل أخيه لأي سببٍ كان، طمعاً في مالٍ أو منصب.. واستسلاماً لنزوة غضبٍ أو حقد.. وما علينا إلا أن نشكر عدالة السماء التي تمنع وجود

الجريمة الكاملة التي يختفي فيها أثر الفاعل فتتوصل العدالة الأرضية لمعرفته بعد جمع الأدلة والقرائن ولو بعد حين لينال جزاءه المناسب، ولكن وكما قال الشاعر:

وقاتل الجسم مقتول بفعلته

وقاتل الروح لا تدري به البشر

فإذا كانت الأدوات المعدنية الحادة والأسلحة النارية هي الوسائل التي يتم بها القتل الجسدي.. فما هي أدوات القتل الروحي؟ وهل حددها لنا شاعرنا حين قال:

جراحات السنان لها التئامُ

ولا يلتام ما جرح اللسان

إذاً.. فقد تخطئ إصابة الرماح الموضع المميت والهدف القاتل فتصيب الجسد بجراحاتٍ قد تبرأ في نهاية علاجها مهما طال أمده لتعود للعضو المصاب أهليته للحركة ولو بفعالية أقل ومع ندوبٍ دائمة..

ولكن إصابة اللسان لا تخطئ هدفها أبداً.. وبالتالي تكون الكلمة قاتلة..

نعم الكلمة تقتل.. فلفظة فاشل أو غبي أو ما يرادفها من ألفاظ مدمرة لو قيلت لطفلٍ صغير وبتكرارٍ مقصود من أبوين جاهلين، فإنها ستصنع منه في المستقبل القريب رجلاً فاشلاً غبياً فاقد الثقة أو شبه رجل لا يملك لنفسه حياة لائقة.. فهو أشبه بالموات.

نعم الكلمة تقتل.. فلفظة أُفٍ الصغيرة جداً فما فوقها من مفردات العقوق والجحود لو قيلت للوالدين، فإنها ستحرم قائلها من طيب عيش الدنيا ومن حسن ثواب الآخرة.

نعم الكلمة تقتل.. فالإهانة المتعمدة والتجريح المقصود من زوجٍ لزوجه ينسف استقرار الأسرة ويخلخل أركانها ويفضي بها إلى دمارٍ حقيقيٍ يدفن تحته عاهاتٍ نفسيةً خطيرةً تعيش الغربة والضياع والتشتت ولا تنتج خيراً.

نعم الكلمة تقتل.. فالترويج المتلاحق والبث الدائم لكلمات التبذل والخلاعة فوق المنابر الإعلامية المختلفة مسموعة كانت أو مرئية أو مقروءة يجفف ماء الحياء ويقتل العفاف، ويودي بذكور وإناث المجتمع إلى حافة أمراض جنسية مميتة.

نعم الكلمة تقتل.. فكثرة النقد الهدّام ورغبة أصحاب مركبات النقص بتحطيم التماثيل الجميلة ومعاودة إلقاء اللوم والتأنيب والتعنيف على الآخرين يشوّه العلاقات الاجتماعية ويعرقل حركة التكاتف والتضامن بين أفراد المؤسسات.

نعم الكلمة تقتل.. فكلمة شرٍ صغيرة قد تقتل حباً عظيماً.. وقد تصنع عدواً لدوداً.. وقد توصل المرء إلى حتفه.

ولست أقرر الجديد من القول حين أقول إن الكلمة سلاح ذو حدين، فمن منا لا يعرف تماماً دور الكلمة الحلوة في بناء جسور الخير و أسس الفوز

وصروح السعادة.. وما الحالات السلبية المذكورة على سبيل الذكر لا الحصر إلا صافرات إنذارٍ وعلامات ترهيبٍ أسمعها وأراها تتمدد في شرايين الناس كخلايا سرطانية تتهدد حياتهم، وما تطوافي عليها إلا لجعلها في أصفاد حكيمةٍ وعبارات منفّرة علّها تجدي نفعاً في معرفة الشر، فلا نقع فيه، ولا نختاره.. ونكون كمن يتعلم الأدب من قليل الأدب.

.. لكل الناس..

في ذلك الزمان البعيد..

في فترةِ بداية مسيرة البشرية.. في عهد آدم عليه السلام.. كان الناس أمة واحدة.. قلة سكانية تستوطن الأرض وترتع في خيراتها، وتطبق المنهج الذي علّمه الله لأبيهم الأول.. حتى بدأت تتعدد الأهواء وتتباين المصالح.

نعم.. ما كان الناس إلا أمة واحدة –وما وإلا – أبلغ بالتأكيد حين تجتمعان – ولكنهم اختلفوا.. ولو شاء ربك – ومشيئته لا يسبقها شيء – لجعَل الناس أمة واحدة، ولكنه جلّ وعلا لم يشأ.. بل ولذلك خلقهم.. ولا يزالون مختلفين..

لذلك خلقهم.. ليكونوا مثل أزهار الربيع، تتنوع ألوانها فوق البساط السندسي الأخضر، وتتمايز

أشكالها زينة وجمالاً تمتع العين وتبهج البصر، ويتعدد شذاها وعطرها فتزداد سحراً وعذوبة.

لذلك خلقهم.. ليكونوا متناغمين مثل أصوات الطبيعة حين تشترك في سيمفونية عزفٍ رائع.. هادئ حينًا، يتمازج حفيف الشجر بخرير الماء بالزقزقة والتغريد.. وصاخب حينًا آخر، فيختلط قصف الرعد بزمجرة الريح بصوت انصباب المطر وتساقطه العنيف.

لذلك خلقهم.. من ذكرٍ وأنثى.. ليكون في التقائهما استمرارٌ لكل أشكال الحياة، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا.. ليعرف أحدهم الآخر.. أيها الناس.. أتسمعون؟ لتتعارفوا.. لا لتتقاتلوا.. لا ليقتل أحدكم الآخر، لا لتقتفوا سنة ابن آدم القاتل الذي قتل أخاه.. بل لتقتفوا سنة الآخر الذي قال لأخيه: ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك.. إني أخاف الله رب العالمين.. هذا الرب العظيم الذي يطلب من الناس.. كل الناس.. أن يعبدوه، فهو الذي خلقهم، خلق

الإنسان في أحسن تقويم، والأرض وضعها له بزينتها وزخرفها وجمالها وأطاييبها، ليأمره بعد ذلك أن يأكل مما فيها حلالاً طيبًا.

ومن الناس.. من كل الناس.. يطلب الرب أن يتقوه، وذلك باتباع منهجه القويم القديم الذي علّمه لأبيهم الأول.. آدم.. النفس الواحدة التي خلقهم منها.. ليكون اشتراكهم في أصل واحد مدعاة لترابطهم وتواضعهم.. فكلهم لآدم وآدم من تراب.

يخاطبكم.. بـ يا أيها الناس.. بعد استكمال المقومات المادية في هذه الأرض (التي هيأها الله بجوها وما يطير فيه، وترابها وما ينبت فيه، وببحرها وما يسكن فيه) وجعلِ معايشكم ومصالحكم وشؤونكم فيها.. كان لابد أن يتم الرب نعمته المحسوسة عليكم بنعمة الهداية، فأرسل الرسل تباعًا.. كلّاً إلى قومه..

وعندما جاء آخر الزمان.. جاء معه الرسول النبي خاتم الأنبياء والمرسلين بالحق.. جاء البرهان.. جاءت

الموعظة والشفاء لما في الصدور.. جاء الحق الواضح الصريح من الرب.. ليكون للإنسان وحده الخيار و حرية القرار.. من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه فيعمّ نفع الهداية دنياه وآخرته، ويصلح شأنهما معًا.. ومن ضلّ فإنما يضلّ على نفسه فيعود وبال الضلال على دنياه وآخرته، ويخسر ويشقى بهما معًا.

ويومئ القرآن للناس أن اذكروا نعمة الله عليكم.. ذكر وتذكّر نعم الله بفاعلية حقيقية تكون مرفقة بالتقوى والإيمان بالله وباليوم الآخر، يوم الحساب.. يوم لا يجزي والدٌ عن ولده.

إنه أيها الناس.. وعد الله الحق.. فكونوا واعين له، لا تخدعنّكم الحياة الدنيا بزخرفها وزيفها.. فتطمعون في وجوه الباطل وأساليبه، وتجرؤون على معصية الخالق.. ولا يفتننكم الشيطان -عدوّكم الأزلي فاتخذوه عدوّا- وأعوانه، فيصرفكم عن اتباع منهج الله، رغم أنكم مفتقرون إليه في جميع حركاتكم وسكناتكم، في كل

أحوالكم وأوضاعكم.. هذا الرب الغنيّ عن العالمين الحميد الخالق الرزاق المنعم الرحيم.. خلقكم ورزقكم وأسبغ نعمه ظاهرة وباطنة وكتب على نفسه الرحمة واقتضت حكمته ألا يؤاخذكم -في الحياة الدنيا-بما كسبتم.. ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة، ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمّى.. لماذا؟

لعلهم يتوبون.. لعلهم يرجعون.. ولعلهم..

ويتنوع النداء السماوي للناس.. لكل الناس.. ليشمل جميع أصنافهم، وجميع أطيافهم، وجميع طبائعهم.. ويلون أدواته بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى.. نراه يرسم لهم صورة زلزلة الساعة بذهولها وهولها وعظمتها لتكون الصورة بتفاصيلها الصغيرة والكبيرة رادعًا واعظًا، وليتجلى من خلالها أحد أدوار الرسول الخاتم النذير المبين.. كما يلفت أنظارهم إلى أسرار

الخلق منذ البدء به من التراب مرورًا بأطوار الإنسان كلها إلى أن يصل بعضهم إلى أرذل العمر..

نراه يضرب لهم الأمثال تلو الأمثال.. مما حولهم.. مما في بيئتهم.. مما تعيه حواسهم ليل نهار.. فيخبرهم أن الذين يدعون من دونه ضعفاء، لا يملكون حولاً ولا قوة.. لا يستطيعون خلق ذبابة.. الحشرة الصغيرة الضعيفة.. مهما حشدوا من قواهم وقدراتهم، ومهما جمعوا من معارفهم وفنونهم.. والأكثر من ذلك.. فإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه.. ويعيدها صراحة ويؤكدها — بلغة مؤثرة واعظة — ضعف الطالب والمطلوب.. وما ذاك إلا لتكون صلتنا بهذا الرب كما يشاء.

ويخصص القرآن سورة كاملة لتكون خطابًا متواصلاً للناس، يمتد على مدى آياتها كلها.. هي سورة يونس..

يبدأ بخطاب أولئك الناس الذين تعجبوا أن يبعث الله تعالى رجلاً منهم يدعى محمدا صلى الله عليه وسلّم رسولاً إليهم ينذرهم جميعًا ثم يبشر من آمن منهم.. ويقدّم الرب الله أدلة قدرته لهم.. فهو.. خالق السموات والأرض وما فيهن من آيات كالشمس والقمر واختلاف الليل والنهار.. هو الذي يدبّر الأمر في الكون بما فيه من خلائق.. هو الذي يبدأ الخلق على وجه الأرض ثم يعيده يوم القيامة.. ليكون الحساب على قدر الكسب في الحياة الدنيا.

وتسرد السورة ملامح مختلفة للناس فتلقي الضوء على بعض سماتهم النفسية الإنسانية..

منها استعجالهم للخير والشر على السواء، وقد خلقوا من عجل..

منها جزعهم إذا مسهم الضرّ، والتجاؤهم إلى خالقهم، ثم إسرافهم في نكث العهد، وفي المكر المشوب بالاستهزاء والتكذيب بعد كشف الضر..

منها جحودهم وإنكارهم للآيات الواضحات البينات التي أتى بها الرسل الكرام..

ومنها اختلافهم إلى طرائق عدة في التفكير والاعتقاد والأهواء، المشفوع أحيانًا بالبغي وبإرادة أخذ حق الغير وظلمهم، مما يؤدي بالاختلاف – الذي يمكن أن يكون بنّاءً مثمرًا — إلى خلاف مدمّر قاتل على متاع رخيص يهلك الأنفس.

ويضرب الله الأمثال من جديد..

الواحد تلو الآخر.. فهذا مثل الحياة الدنيا الفانية المؤقتة كمثل نبات الأرض – على اختلاف أنواعه مما يأكل الناس ومما تأكله الدواب — وقد اختلط به ماء السماء ليزيده نضجًا ونماءً ويكسبه نضرة وجمالاً، حتى إذا جاءته عاصفة أو ريح هوجاء أو بَرَدٌ عنيفٌ تساقطت الأزهار وأُتلفت الثمار.. فصارت الأرض حصيدًا لا نفع فيها وقفرًا لا رجاء منه.. وكأنها لم تكن قبل ذلك شيئًا.. وهكذا.. فالأمور بعد زوالها

كأنها لم تكن.. وهكذا.. فالحياة الدنيا مؤقتة.. زائلة.. عابرة.. لا خلود فيها.. وها هي أنباء الأقوام المكذبين، كقوم نوحٍ وقوم موسى، تنبئكم بما حلّ بهم.. فهل من متعظٍ معتبرٍ يرنو إلى دار السلام وقد دعاه الله إليها، فيحسن العمل ويمشي على الصراط المستقيم.. ولا يمد يدًا أو عينًا إلى الضلال وكسب السيئات وقد نهاه الله عنها.. لا يكرهه على الإيمان والتصديق نبي مرسل وقد اقتضت حكمة الرب ومشيئته أن يكون دور الأنبياء والمرسلين بما فيهم الرسول الخاتم مقتصرًا على البلاغ.. وها هو الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم قد أُمر أن يقول للناس إن كانوا في شكّ مما بُعِثَ به، أنه لا يعبد ما يعبدون من دون الله، بل يعبد الله الذي يتوفاهم، وأنه أُمر أن يكون من المؤمنين.

وهكذا.. يلقى الإنسان في نهاية المطاف، جزاءً عادلاً على اختياراته في دنياه.. والله لا يظلم الناس شيئاً..

بل هو الرب.. الممتن عليهم بأرزاقٍ ونِعمٍ لا تعدّ ولا تحصى.. المتفضل عليهم بكتابٍ عظيمٍ فيه الموعظة، والنصيحة والتذكرة بالعواقب والأمر بالطاعة والوصية بها والأوامر والنواهي التي تصلح من شأن الناس فيما بينهم، وفيما بينهم وبين أنفسهم ودواخلهم.. فهو الشفاء لما يعتمل في الصدور من مشاعر سلبية تقض المضاجع وتؤرق العين على الصعيد الشخصي الداخلي والصعيد العام في العلاقة مع الآخر..

هذا الكتاب العظيم.. هو القرآن.. آخر الكتب السماوية المنزلة.. الوثيقة الرسمية الأخيرة من رب السموات والأرض.. الذكر الذي تكفّل جلّ وعلا بحفظه.. لماذا؟؟ ليظلّ المنارة الهادية في ظلمات الإنسانية المتعاقبة..

ليكون البيان، للناس كافة.. وفي البيان إيضاح.. والهدى والموعظة للمتقين فقط..

ليكون البلاغ.. للناس كافة.. وفي البلاغ لغة إنذار ولغة إعلام، أما لغة تذكير فيفهمها أولو الألباب فقط.. جعلنا الله منهم آمين.

ويمنح الله هذا الكتاب الخاتم صفة أخيرة بقوله.. هذا بصائر للناس.. والبصائر جمع بصيرة ومن معانيها قوة الإدراك والفطنة – العلم والخبرة – العقيدة والرأي – الحجة – العِبْرة – وكلّ ما اتُّخِذ جُنّة كالدرع والترس وغيرهما..

وهذا توقيعٌ أخير شامل يحمل معانيه كلها للناس جميعًا.. بلا استثناء.. ويضيف إليه معنى الهدى والرحمة لمن كان موقنًا.. موقنًا، علم معنى الرسالة الأخيرة، علمًا لا شكّ فيه، وتحقق منها يقينًا واعتقد صحتها، فاطمأنت نفسه إلى حكم هذا الكتاب المنزل.. فتحرّى في كل لحظةٍ من لحظات حياته ألا يكون من الفئات الكثيرة.. من فئة أكثر الناس..

الذين لا يشكرون، الذين لا يعلمون، الذين لا يؤمنون، والذين يأبون إلا كفورًا..

تحرّى ألا يكون من فئة الكثير من الناس .. الفاسقين.. الغافلين.. جاعلاً قيم الشكر والعلم والإيمان أولويات في حياته.. باذلاً كل جهده للابتعاد عن الفسق والغفلة والكفور.

بذرة بحثٍ عن الحكمة

لا نزال نقرع أبواب الحكمة..

لا نفتأ نتتبع كل بارقةٍ تومض في سمائها.. بحثًا عن المزيد والمزيد منها.

فلو وجدناها مكتوبة على الزاوية اليسرى العليا من السبورة في صفٍ ابتدائيٍّ مغمور..

لو صادفناها منمقة الحروف خلف ورقة رزنامة..

لو سمعناها من فم عجوزٍ أحنت تجارب السنين ظهره وأكسبته ثروة من الخبرات لا يستهان بها، فراح يورثها حيًّا – قبل موته – لكل من يحيط به..

لو قرأناها في سطور زاهية موشاة في رسالة بريد – إيميل مميز – الكتروني..

ولو بحثنا عنها في صفحات الكتب أو في دواوين الشعر، فإنما نريد بها أن نمسّ مشارف الكمال هربًا

من مواطن النقص.. وأن نزداد فهمًا لأسرار الحياة ونضجًا في ممارستها.. وأن نمتلك العمق والرسوخ والتوازن في مواجهة عالم مجنون.

هي الحكمة.. وما أدراك ما الحكمة؟ فلعلها من أسمى الألقاب التي يسعى إليها أي إنسان، لتقترن باسمه، منتسبًا إليها..

هي الحكمة.. ضالّة المؤمن – كما وصّفها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم – أينما وجدها فهو أحق بها.. وفي هذا التوصيف حضٌّ واضحٌ على تتبّع مواقعها والتماسها في مظان وجودها عند حكماء الشعوب وعلمائهم وأصحاب الفكر والرأي على مرّ العصور والدهور.. ولعل ما أينع من ثمرات عقول هؤلاء جميعًا عصيًّا على الجمع والإحصاء – لوفرته وكثرته – في مقالٍ متواضعٍ ضمن كتابٍ صغيرٍ، لهذا أجدني أرنو إلى ملمحٍ منها في أهمّ منابع الهدى على الإطلاق، ألا وهو كتاب الله العظيم.. حيث تتناثر

الحكمة، وتتوزع بين آياته الكريمة في المصحف الشريف.

هنا.. أقف متشوقة.. متشوفة.. في موضعٍ خاصٍ متميزٍ تُرسَل فيه على لسان رجلٍ حكيمٍ يعظ ابنه..

هنا.. أقف متأملة.. مصغية السمع والقلب والجوارح.. إذ أجدها مشفوعة بالحب الكبير والحنان الفائض والرحمة البالغة.. يتقدمها نداءٌ تحببٍ يستميل القلب الشارد عن المتحدث.. نداءٌ جميلٌ تصغى إليه مسامع كل سامع، لما فيه من الرقة والعذوبة.. توطئة لما بعده من عزم الأمور.

(يا بُنَيّ).. فأهفو إليها.. وأرهف القلب.. وأهيئ الجوارح.. وأُقبل بكُلّيتي إلى قوله وموعظته.. وأقرأ.. وأقرأ ثانية.. وأعيد القراءة بإمعان وتدبّر.. ثم أعمد إلى قلمي لأدون بنود الحكمة بندًا بندًا.. أُحصيها — في هذا الموضع حصرًا — فأجدها إحدى عشرة موعظة..

تبدأ بالنهي عن الشرك.. الظلم العظيم.. أخطر الذنوب وأعظمها.. لا تشرك بالله.. لتستيقظ الحواس دائمًا وتكون على أهبتها في مغالبة الشرك وإن خفي واستتر.. تليها في الأهمية مباشرة وصية أساسية هامة.. يغفل عنها الكثيرون وبخاصة في زمن العقوق.. وصية الإنسان بوالديه.. أن يشكر لله ولهما.. وهل في اقتران فعل الشكر لله بالشكر للوالدين إلا دلالة عظيمة على علو قدرهما وشأنهما عند الله.. في كل ظرفٍ وفي كل آنٍ حتى لو أمعَنَا في إقصاء الولد عن الإيمان ودعوته الملحّة إلى الإشراك بالله، ليكون الأمر الواضح في حالة كهذه، المصاحبة في الدنيا بالمعروف استرضاءً وإيفاء حق.. والبحث بعد ذلك عمن يدلّه إلى سبيل الهدى ممن أناب إلى الله وتاب ولزم الطاعة وعاود الوقوف على جادة الصواب مرّة بعد أخرى كلما شردت به نوازعه وأهواؤه.. مستعينًا بما تقدّمه له إقامة الصلاة المكتوبة

حقّ إقامتها.. الموقوتة بخمس أوقات تغطي سحابة ليله ونهاره وتجعله موصولاً بالرقيب الذي لا يغيب، فتنهاه عن الفحشاء والرذيلة ومنكرات الأمور.. وتكون له سياجًا ورادعًا عن التمادي على حقوق الغير.. فإذا ألزم نفسه بتعاطي المعروف واستطابه حُقَّ له أن يأمر غيره به.. بل وصار من لوازم دوره في هذه الحياة أن يتوسّع في دوائر التأثير، ليعمّ الخير والفضل الآخرين، وليتقلّص طيف السوء والضرر والقبائح.. مستخدمًا وسائل الإقناع الحسنى والخطاب المناسب الفعّال، مبتعدًا عن الجدال والإكراه والفوقية، في شقّي التوجيه والنصح.. أمرًا ونهيًا.

وتنطلق الحكمة بعد ذلك إلى مستوى أدقّ وأخص في النفس البشرية.. فتزيّن الصبر وتجعله مطلبًا إراديًا قابلاً للتحقق وإن شقّ.. ومن منا لم يقرأ عن فضائل الصبر وعواقبه ومناقبه ونتائجه.. مما يقوي العزائم.. ويشدّ الأزر.. ويفجر الطاقات.. ويضاعف

القدرات.. الأمر الذي يوصل في النهاية غالبًا إلى أربٍ مرجوٍ وغاية مأمولة، فتزهو النفس بنيل المراد وتفخر بتحقيقه، وقد يداخلها العُجب القاتل.. ويودي بها إلى هاوية الخسران.. وهنا تقتضي الحكمة أن يُسْكِن الإنسان لاعج الغرور ويُسكت داعي الكبر.. فلا يصعّر خده للناس، ولا يتعالى عليهم، و لا يعرض عنهم، فينفضّوا من حوله.. ولا يختال تيهًا، ولا يمشي في الأرض متكبرًا متجبرًا، يسخر ممن لم يحققوا ما حقق.. ولم يبلغوا ما بلغ، فينسب فضل حصول النعمة إلى نفسه ناسيًا متناسيًا توفيق الله له.. فلا يكون الرد المناسب لنسيانه هذا، إلا إعادته إلى استجماع القصد الأسمى والوحيد من وراء كل حركات الناس وسكناتهم.. ألا وهو ابتغاء وجه الله.. ليظل سبحانه دائمًا من وراء القصد.. ويظل عمل المرء مقترنًا بالخضوع له والسكينة والوقار والهدوء بين يديه .. ويصير التأثير أبلغ في النفوس ، وأكثر تقبلاً.

وهكذا تتدرج الحكمة في معالجة حال الإنسان من أعمق نقطة في الداخل إلى أبعد مظهر في الخارج.. من أفعاله القلبية وأحواله الوجدانية إلى سلوكياتٍ ظاهرة وأحوال مرئية.. ومن أعمق مستوى روحي في كيان الفرد حيث تتفرّد الصلة بالخالق وحدها هناك إلى جوانب وملامح من العلاقات مع المخلوقات.. وإليها نعود آنًا بعد آن.. لنقرأها مرة بعد مرة.. مستلهمين منها المزيد والمزيد:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ

فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾[لقمان].

آياتٌ.. مختلفٌ ألوانها

في كونٍ هو بديعُ صنع الله..
تختلف ألوان الأشياء.. تختلف الألوان وتتمايز فيما بينها ليكون ذلك آية.. بل آيات.. آيات عظيمة لمن يرى، فإذا رأى ونقّل بصره بين مرئياتٍ مختلفةٍ لامتناهية، كان في إبصاره شهودٌ لعظمة الخالق، يدعوه إلى التذكر أولاً.. فالتفكر.. فالتعلم.
أما إذا رأى.. غافلاً عما حوله، ذاهلاً عن سر وجوده، لاهيًا، عابثًا، منغمسًا في قعر دنياه الفانية المهلكة.. فكأنه ما رأى، يقوده جهله الأعمى في حياةٍ عبثيةٍ تهبط به إلى درك الحيوانية.
هي آياتٌ ملونةٌ.. تجذب الانتباه، وتشدّ الأنظار.. فإذا بالناظرين يتفاوتون في ردّة الفعل المطلوبة..

فما دون أدناها.. أن لا تحرك ساكنًا فيهم – كأنهم الجمادات _ يمرّون عليها، وهم عنها معرضون.. قد وصّفهم قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾[يوسف]..

أما أدناها.. والذي يودي إلى أبسط تفاعل معها، فهو أن تثير الإعجاب، الإعجاب لا غير..

وأما إذا صادف الإعجاب قلبًا حيًّا.. موصولاً بخالقه غدت هذه الصور الملونة على كثرتها وتنوعها شواهد ناطقة في كل آن، تقرع بإيحاءاتها أبواب الذكرى الدائمة، ليعتبر بها كل ذي لبّ، منتزعة منه الاعتراف الإيقاني المؤمن "هذا خلق الله".. ذاكرًا ذلك بين الناس، متحدثًا به وبنعمة الله.. ومتذكرًا دائمًا، شاكرًا نعماء الله وآلائه المبثوثة في أنحاء الأرض..

قال تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣)﴾[النحل].

ومن أجل الغاية المنشودة في تحريض العقل على التفكر، ولتكون دعوة صريحة لإعمال الفكر في كل ما حولنا، يخصّ القرآن بالذكر نعمةً واحدةً لصيقة بحياة الإنسان على مستوى غذائه، هي العسل.. هذا الشراب الخارج من بطون النحل.. مختلفٌ ألوانه تبعًا لمصادره المتنوعة من كل الثمرات.. وتبعًا لاختلاف أماكن تواجد خلاياه وبيوته.. إن في الجبال أو في الشجر أو في ما يعرشون..

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾[النحل].

عند ذلك.. يندفع المشاهد بعد التسبيح والتكبير والذكر.. وهو عملٌ قلبيٌّ، لا يقلّ أهميةً عن عمل العقل، إلى البدء بالتأمل الواعي لهذه الموجودات،

ليأخذه الوعي بدوره إلى آفاق البحث والتقصي والتنقيب..

وهناك.. وعلى قمة الاهتمام، عند أعلى درجات التبصر والتفهم والاستقصاء.. هناك عند حدود المعرفة العلمية التخصصية.. هناك ينفرد العلماء بالخشية.. خشية الله .. آلا وهي الثمرة الأسمى لأي علمٍ دنيويٍ أو أخروي..

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾[فاطر].

وفي هذه الآيات وفي غيرها.. يدعونا القرآن دائمًا للإمساك بنقطة البدء.. لما للبداية من دورٍ هامٍ في

الانطلاق الصحيح عبر تسلسلٍ منطقيٍّ هو العمود الفقري لمنهج العلم..

هنا.. يلفت نظرنا إلى البدايات في رحلة الإنبات..

فمن الماء تبدأ القصة.. وتبدأ الأعجوبة..

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١)﴾[الزمر].

أنزل الله من السماء ماء، ثم أخرج به الزرع..

مختلفًا ألوانه.. يتفاوت..

بين نباتٍ ينمو ضمن تراب الأرض، إلى شجرٍ باسق الطول لا تدرك العين ذراه..

بين زرعٍ لا يؤكل، وآخر لا تأكله إلا البهائم، وآخر يصلح للغذاء البشري..

بين زرع ينفع، وآخر يضرّ..

بين مثمرٍ وغير مثمر.. وإذا بالثمرات مختلفًا ألوانها وأشكالها وطعومها.. ولكنه – تبارك الله – يسقى بماءٍ واحد.. ولأن الله قد أخبرنا أنه جعل من الماء كل شيء حيّ.. إذ قال:﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾[الأنبياء].

لابد أن تتجه أنظارنا إلى بقية المخلوقات.. وإلى كل شيء..

إلى الأشياء.. إلى الجمادات التي نحسبها جمادًا وهي تمرّ مرّ السحاب.. كالجبال مثلاً.. فنراها مختلفًا ألوانها.. منها جددٌ بيضٌ وحمرٌ وغرابيب سود.. تختلف ألوانها باختلاف أنواع فلزاتها ونسب معادنها التي تتكون منها، وباختلاف أسباب نشوئها، بركانية كانت أو رسوبية أو غير ذلك، وباختلاف ارتفاعاتها وأحجامها وامتداداتها..

وإلى الدوابّ.. وهي تضمّ كل ما يدبّ على الأرض من كائناتٍ تتناهى في الصغر إلى حدّ ألا تُرى بالعين

المجردة، وكائنات تبلغ من الضخامة ما يدخل الروع في القلوب..

دوابّ تتحرك بفعلها.. كأحياء متكاثرة متناسلة، منها من يمشي على بطنه ومنها من يمشي على رجلين ومنها من يمشي على أربع.. أحياء، تندرج تحت اسمها بلايين البلايين من الأنواع الحية، من الحشرات طائرة وزاحفة، والطيور مختلفة الأنواع والأحجام والأشكال والألوان ، والحيوانات أليفة ومفترسة، والأنعام التي سخرها الله لغذاء الإنسان..

ودوابّ تتحرك بفعلٍ خارجي وسيطٍ.. يدفعها إلى الحركة.. كوسائل النقل المتنوعة، ابتداءً من دراجة هوائيةٍ بسيطةٍ، وانتهاءً بالطائرات العملاقة التي تحمل في الهواء أطنانًا من الأوزان..

وإلى الناس نعود.. فمن الناس مختلفٌ ألوانه أيضًا..

والإنسان أكرم المخلوقات.. خلقه الله في أحسن تقويم.. ليكون لكل إنسان على حدةٍ، لونه وشكله

ولسانه وصوته وتفاصيله الصغيرة على مستوى البصمة.. وتتنامى مفردات الاختلاف عند البشر لتشمل بالإضافة إلى اختلاف المظهر اختلاف الجوهر من طباع وقدرات وإمكانيات.. ولقد قرن الله آيات خلق السموات والأرض بآيات اختلاف ألسنة الناس وألوانهم لتكون آيات للعالِمين..

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢)﴾[الروم].

بلى.. هي آياتٌ ملونةٌ.. أوجدها الله لتكون نبراس علمٍ، تدعو الناس إلى أن يكونوا في نهاية المطاف.. عالِمين — لمن يستطيع ذلك – لا أن يقفوا عند مرتبة المتعلمين، مع أنها منزلة جليلة ترفع قدر الإنسان..

قال أبو الدرداء: كن عالما أو متعلمًا أو مستمعًا، ولا تكن الرابع فتهلك..

وقال معاذ بن جبل: تعلّموا العلم.. فإن تعلّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة..

أما لقمان الحكيم فقد أوصى ابنه: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الله الأرض الميتة بوابل السماء.

وجهة نظر

على الفيسبوك نلتقي.. فلا تلتقي العيون.. ولا تتصافح الأيدي..

لا تتقارب الهالات البشرية، فتنسجم أو تتنافر..

ولا تتحدث اللغة الغالبة لغة الجسد..

نلتقي دون أن نلتقي.. ولا نملك إلا أن ندور في أفلاك الكلمات..

هنا على الفيسبوك.. قد يعلو صوتنا.. ويهدر نداؤنا.. وتدوي صرختنا.. وهنا أيضًا.. قد نقرأ الجواب، فيدهشنا التجاوب وتسعدنا الاستجابة.. تأسرنا الكلمة الرقيقة، ويدغدغ مشاعرنا التفاعل الراقي..

قد نمتدّ إلى مساحات الآخر.. ونتغلغل في آفاقه.. ونطوف على تخومه.. قد تتزاحم الأسماء الحبيبة..

والردود المتوددة.. والتعليقات الدبلوماسية.. قد نتبادل الاهتمام.. ونتقاسم الاهتمامات.. وقد يكون الحوار حميميًا حينًا.. واستثنائيًا حينًا آخر..

ولكنه.. يظل اللقاء دون لقاء..

تسقط دمعتنا.. ولا من يدٍ تمسحها..

ينزف جرحنا.. ولا من راعٍ يضمّده..

وتتعدد حالاتنا.. ولا من عينٍ تراها..

وهكذا.. تظل أنانا وحيدة مأسورة خلف قضبان التواصل الالكتروني.. منفية في حبسٍ انفراديٍ..

منقطعة.. إلا من حروفٍ صامتةٍ.. بكماء.. خاوية..

وهكذا.. تظل أنا الآخر بعيدة.. نائية.. لا نتقرّاها بلمس.

تأملات تحت قنطرة اليوبيل الذهبي

خمسون عامًا.. نقف عند حافتها لنتأمل في أعوامها المنصرمة آثارًا ترتسم على جدران حياتنا..

خمسون عامًا..

أنزداد بها شبابًا وقد عزمنا على المضي في اقتحام العقبات؟؟.. أم نزداد شممًا بعد اقتطاف النجوم وإحراز نصر تلو آخر؟؟.. أم نزداد شحوبًا وقد أعيتنا الحيلة في الوصول إلى كل ما نريد؟؟..

خمسون عامًا..

أنزداد بها جفافًا وقد امتصتْ أشواقُنا الأولى وأمانينا الطامحة الكثير من ماء الشباب، واعتاشت وارتوت في نسغ عروقنا؟؟.. أم نزداد حبًا لإمكانية أن نحيا كما يجب؟؟.. أم نزداد زهدًا في المستحيلات التي عزّ نوالها وصعُب تحقيقها؟؟..

في خمسين عامًا..

يبدو أننا نزداد تطلّعًا إلى الآخرة.. إلى آخرةٍ، تُغرينا ديمومتها بعدم الاهتمام بـ – يومٍ أو بعض يوم – رغم أن نداء الطينة البشرية يستصرخ كل الحاجات من هرمها المفترض، وينادي كل الرغبات الساكنة في ذواكر كلٍّ من الجسد والعقل والقلب والروح..

أما الجسد.. فقد بدأت خطوطه البيانية بالانحدار ببطءٍ إلى قاع الضعف والشيبة، تراجعت مرونة العضلات وتناقصت ديناميكية المفاصل، زالت نضارة الخلايا وضعُف أداء الأجهزة جميعها دون استثناء.. لقد صار جسدًا يسير حثيثًا في دروب الهرم والشيخوخة..

أما العقل.. فها هو باستمرار يعتاد ارتداء خوذة الحرب المباركة، ويبادر في معركة الحياة إلى اتخاذ مواقف متباينة تستدعيها ظروف الصراع على البقاء، فمن مواقع الدفاع إلى مواقع الهجوم، إلى تكتيكات

الكر والفر والانسحاب، إلى لحظات مفصلية يحسمها قرارٌ صائبٌ أو آخر قاتل.. قد تحركه فوضى الارتجال والتسرع، وقد تنأى به عن الأخطاء المصيرية حنكة فطريةٌ أو مكتسبة..

وهنا أتساءل إن كان يحقّ لنا أثناء عبورنا جسر اليوبيل الذهبي أن ندّعيَ الحكمة والخبرة؟!!! أم أن الطبع يغلب التطبع وأن ما كنّاه منذ نعومة أظافرنا مازال يفرض نفسه مصيرًا محتومًا لم تغيّر فيه التجارب قيد أنملة، وما زال يهيمن على أقدارنا سلوكياتٍ فنتائج.. إن أخطاء السمع والبصر والفؤاد وقصورها البشري ترسم في أذهاننا صورًا عن واقع مختلف، تتراكم خبراتٍ وقناعاتٍ، لتجعل منا من نحن، ولتصنع لنا خياراتنا، مع أننا قد نلتقي عند أحد المنعطفات في حياتنا بفنون تنمية الذات وعلوم تطويرها فنكتسب منها ما نكتسب، لتصير حلية، مجرد حلية نتحلى بها دون أن تمسّ فينا جوهرًا فيشعّ

بحقّ، أو ليظلّ ذلك علمًا قد لا ينتفع به أو لا يعمل بقوانينه، أو لنظل دون تغيير – ربي كما خلقتني – يمر بنا العمر أطوارًا، يسلمنا الطور إلى طورٍ بعده في آلياتٍ محدودة متراتبة..

أما القلب.. فهل لا زال غضًّا؟؟.. أتراه خُلِقَ ليظلّ طفلاً مشاغبًا يحلو له بين الفينة والأخرى أن يتمرّد على القوانين الوضعية التي يتخذها الأنام؟؟.. أم أن الخمسينية التي أثقلت عليه، أثخنته، فما أبقت له طيفًا؟؟.. أتراه يخفق باحثًا عن عيشٍ كريمٍ.. مجرد عيش..؟؟.. وهو الذي وقع في براثن شرَك الحياة العادية، يتنفّس تحت أرديةٍ سميكةٍ ثقيلةٍ لا تتعدى كونها خيباتٍ غائرة.. وبقايا جراح..

وأما الروح.. التي طال بها عهد الفراق عن لحظات ألست بربكم.. فلعلها تصير أكثر اقترابًا من بارئها وأكثر أُنسًا بطاعته.. تتلهف إلى حبٍ يسوّغ لها

المعنى الحقيقي من وراء خلق الأكوان والأنام، بعيدًا عن العبث واللهو، واعترافًا بأحقية الرجوع إليه..

أيها الراحلون في مجاهل الخمسين الثانية..

لقد وطئت أقدامكم أرضًا غريبةً هي امتداد الأمس العابر..

أيها المسافرون إلى قادمِ الأيام..

لعلكم قد أتقنتم حزم الحقائب وأعددتم الزاد الكافي والعتاد المناسب..

أيها العابرون..

لابد لكم من هذه الوقفة الصغيرة تحت قنطرة اليوبيل الذهبي.

أوراق من وحي الأزمة

-١-

هلا شققت عن قلبه

محض ذكور.. امتشقوا لحاهم المزيفة كما يمتشق الفارس سيفه، وقد غلب على ظنهم أنها جواز سفرٍ مضمون إلى الفردوس الأعلى..

لا.. بل أيقنوا.. أنها صكّ ملكية قطعيّ لكل رحاب الجنة..

يمنحون (من يشاؤون) من خلال وجود شعيراتها المتناثرة في وجوههم الصلفة شرف الدخول إلى رياضها الناضرة.. ويمنعون (من يشاؤون) فرصة الفوز بالنعيم المقيم.. متألين على الله.. مطلعين على السر وأخفى.. عالمين بغيب النفوس وبما تكنه الصدور.

محض ذكورٍ.. غرّهم بالله الشيطان الغَرور.. فراحوا يمتطون صهوة العلم الشرعي (فيما يزعمون) ليحلّوا ما

حرّم الله.. وهل حرّم الله أكثر من سفك الدماء وقتل النفس إلا بالحق؟؟.. وهكذا.. انهمرت فتاوى التكفير بادئ ذي بدء لتتبعها فتاوى السماح بالقتل على الهوية.. وعلى المذهب.. وعلى الفئة..

كيف بهم وقد سمعوا حديث الحبيب.. صلى الله عليه وسلم.. من بالمؤمنين رؤوف رحيم: إذا التقى المسلمان بسيفهما (وفي اللقاء مواجهة مكشوفة صريحة.. متبادلة ومتساوية الفرص.. لا يداخلها غدر من الخلف.. ولا طعن في الظهر.. ولا شبهة خدعة.. ولا حيلة قذرة للقتل عن بعد) فالقاتل والمقتول في النار..

المقتول؟؟!! في النار؟؟!! نعم لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه..

وهل أبلغ من أن ينسبه إليه فيكون صاحبه، في موقف كهذا !!

فما بال من يقومون بسلسلة أعمالٍ إجرامية.. وعن بعد.. كوضع متفجراتٍ موقوتة.. أو زرع ألغامٍ مدفونة.. أو قنصٍ للمارة على السواء..؟

ما بال من يتقربون إليه تعالى بسفك المزيد من الدماء البريئة.. ولعلها أبعد ما تكون عن الساحات السياسية أو العسكرية أو المذهبية..؟

إليهم جميعًا..

اذكر الحادثة التي كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقي الصحابة المشركين فهزموهم، فشد رجل منهم على رجل، فلما غشيه السنان قال: إني مسلم، فقتله وأخذ متاعه، فرفع ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: « قتلته وقد زعم أنه مسلم؟ » فقال: قالها متعوذاً. قال: « هلا شققت عن قلبه؟ ».

قتلته؟؟ وقد زعم؟؟.. ومن منا لا يفهم ما تعني كلمة مزاعم..

أقولها لهم.. وأقف بعدها عاجزة عن البيان أمام بيانها الصارخ المدوي.

-٢-

اللعبة الجديدة

لعل الغرب قد أدرك غباء سايكس وبيكو حين رسما ذات يومٍ الخارطة الاستعمارية للدول العربية، فقد كلفه هذا الغباء خسائر باهظة ماديًا وبشريًا.

بعد استقلال آخر دولة عربية، قدح الغرب زناد فكره من أجل تعديل خساراته.. والاستمرار في مكاسبه..

قرر.. أن يغزونا بأنفسنا.. أن يهلكنا بأيدينا.. أن يستغلنا بإرادتنا.. وكان له ما أراد.

راح يصدّر لنا الدمى الأسطورية.. دمى متنوعة مبهرة تأخذ بالألباب..

دمى اللهو واللعب ومهرجاناتهما.. التي لا ولا ولا حصر لها.. دمى الزينة والتبرج وفنونهما، من قمة الرأس إلى أخمص القدم.. دمى المصطلحات والمفاهيم

ومتاهاتهما، التي تفكك القيم والمعايير، وتزرع الريب والشكوك، وتميّع الثوابت والمبادئ.. دمى الصراع والاقتتال ودواعيهما، الجاهزة والمعلبة في عبواتٍ.. مشروعة.. مُقْنعة.. ومُقنّعة..

دمى الغرب هذه.. على كثرة أنواعها.. صارت بين أيدينا.. في بيوتنا.. وعلى رفوف مكتباتنا.. أما تأثيرها.. فللأسف عاث فسادًا في قلوبنا اللاهية.. وفي عقولنا المتناحرة.. وفي حاضرنا الدامي.

-٣-

سمَّوه زورًا.. الربيع

عرفناه فصلاً للحياة.. لكنهم..

قتلوا في بلادي العربية.. الاسم والمسمى..

اغتالوا ألوانه الزاهية..

تركوا لنا لونين.. لا غير.. أسود.. يلفّ الأجساد والقلوب والأرواح.. وأحمر.. يتناثر ويتطاير في كل مكان..

أطلقوا عليه نيران إعلامهم الوحشي.. وحشدوا لتشويهه جحافل الشر والمكر والخبث..

سمَّوه زورًا.. الربيع.. وفي ربيعهم الزائف..

امتلأت الساحات والشوارع بالصراخ وبالهياج.. وسكت صوت العقل لتتحدث غريزة القطيع..

قُطعتْ أوصال البلدان، وسادت الصراعات الدامية بين شمال وجنوب، بين قبيلة وأخرى.. بين إقليم وإقليم.. بين أخٍ وأخيه..

قتل ابنُ البلد ابنَ بلده.. لمجرد أنه يخالفه – وما أكثر وجوه الاختلاف –

في ربيعهم المزعوم.. صار لكل بلدٍ همّها الشاغل.. بعد أن كان الأقصى المنهوب.. محطّ أنظارنا، ومهوى أفئدتنا، وهمّنا المشترك..

سمَّوه زورًا.. الربيع.. ولكن.. لم يحمل ربيعهم القاتل هذا لوطني العربي الكبير إلا المزيد من الصراع.. والانقسام.. والقتل.

-٤-

.. لسوف تسألون..

أيها الوالغون في قتل الأبرياء.. المسرفون في ارتكاب خيانة الله.. القادمون من الفتنة العمياء..

أيها السائرون في ركب الشيطان.. المتتبعون خطواته خطوة فخطوة.. المقتفون أثر المجرمين..

أيها التائهون على دروب الضلال.. المستغرقون في سراديب التيه والظلمة..

ما أكثر ما أفسدتم، وما ألحقتم بوطني من دمار.. ما أعظم ما سفكتم من دماء.. إن دمًا بريئًا يقطر من أياديكم وأسلحتكم، سوف يكون خصمكم يوم القيامة.. سوف يتعلق في رقابكم ويطالب رب العدل بالقصاص.. "رب إن هؤلاء قتلوني.. فاسألهم فيمَ قتلوني".. هلمّوا.. فاستحضروا له جوابًا.. فلسوف تُسألون..

أنا لم تعد تعنيني قضيتكم.. فهي الخاسرة إنسانيًا في ميزان العدالة، ولم يعد يعنيني ظلامكم.. لأن النور في قلبي..

أنا ووطني "أرض الشام" في حماية الله.. مباركون نحن من رب السماء.. تظللنا أجنحة رحمته، وتكلؤنا عين رعايته، وتحفظ علينا استقامتنا أصالة المنهج القويم..

لقد أخبرنا ربنا أنكم لا تضروننا شيئًا.. إلا بإذنه..

أنكم لا تضروننا.. إلا أذى..

مهما غاليتم في عدائكم، وأسرفتم في حقدكم..

مهما بلغت ضراوتكم وشراستكم..

مهما استشرى أذاكم وضرركم..

فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. أتسمعون..

ما كتب الله لنا..

من الأجر والجزاء الحسن..

من النصر والتمكين..

من الرحمة والنعيم الخالد.

-٥-

... كنا بشرًا...

قبل أن تتفشى فينا أمراض العصر..

كنا بشرًا.. نستقبل أول شعاع شمسٍ في عُمان.. ونمتطي برفقة السندباد صهوات جياد عربية أصيلة لنصل بها إلى المغرب، حيث تودّع الشمس آخر النهار، وجه الأرض العربية الواحدة، وهي تنغمس في مياه المحيط متعبة، قد حمّلتها الوجوه العربية همومًا عربيةً لا حصر لها..

وفي طريقنا بين المشرق والمغرب..

وفي رحلتنا من الشروق إلى الغروب..

كنا نجمع حبات التمر تحت نخل بغداد قبل أن نصعد إلى الحدائق المعلقة في بابل..

كنا نمصّ قصب السكر عند أقدام أبو الهول بجوار الأهرامات وعلى أطراف النيل..

كنا نتجوّل سائحين قرب أسوار مملكة سبأ.. ونثقب نوى الزيتون لنصنع منها عقودَ زينةٍ لأميرات قرطاج..
كنا نزور في الحجاز كل الأماكن المقدسة، متوجهين بعدها إلى أقصانا الشريف..
كنا لا نترك شبرًا من بلاد العرب إلا ونقرأ فيها تاريخ حضارات عريقة.. موغلة في القدم والعراقة.. حتى آلاف السنين.
بلاد العرب التي احتضنت كل الرسالات السماوية.. وصنعت أمجادها العظيمة بسواعد أبنائها.. وحبات عرقهم.. وبنت أوابدها العتيدة بجهود علمائها.. وخفقات ألبابهم..
قبل أن تفشى فينا أمراض العصر الهمجي..
كنا خير أمة أخرجت للناس.. نحمل ملامح إنسانية حقيقية.. مطعّمة بالمروءة والنبل والشهامة.. مترعة بالوفاء والإيثار والسخاء.. غنية بالكرامة والإباء والتعفف.. زاخرة بالرحمة والطيب والتعاطف..

كنا بشرًا..

تتصارع في داخلنا قوى الخير والشر.. ولكن لم نكن أبدًا ذئابا.. أو وحوشًا ضارية.. أو أضل سبيلا..

لم نكن قتلة بدمٍ بارد.. ولا آليين من معدن ثقيل..

قبل أن تتفشى فينا أمراض العصر الحديث..

كنا بشرًا من طين.. والطين من الأرض.. والأرض أمنا الطيبة الحنون.. ولم نكن أبدًا معملا كيميائيًا متنقلاً، يحمل الداء قبل أن يحمل الدواء..

في خلايانا.. تسكن الذرات المصنعة، والمواد الدخيلة..

كنا.. بشرًا.. أخيارًا..

تجري في عروقنا دماء.. عربية.. طاهرة.

-٦-

لا تنازعوا.. فتفشلوا.. وتذهب ريحكم

القصة قديمة.. قديمة.. فمنذ أن بدأت المجتمعات البشرية بالتكون.. بدأ الصراع الأزلي على اقتسام

المواقع.. من يكون فوق؟ ومن يكون تحت؟ من هو مسؤول؟ ومن هو مواطن عادي؟ مع العلم أن المسؤولية، موقع تكليفٍ شديد الوطأة.. وأمانة ثقيلة.. لا موقع تشريف ومباهاة.. كذا موقع المواطنة الحقة، موقع أمانة وشرف.. وحبٍ مخلص للوطن.. وعطاءٍ متفانٍ.. وبذلٍ بلا حدود.. وهكذا، ولما بدأ التنازع على السلطة وعلى كراسي الحكم وامتيازاته، ينشب أظافره في أعناق الطامعين الطامحين.. بدأت الأهواء تتلاعب بالعقول.. بدأ أصحاب الغايات يتجاذبون المصالح، ويسعون لاستلاب ما في يد الآخر مهما كلف الأمر، ولو تطلب ذلك فعل مجابهةٍ، أو إشعال فتيل النزاع والفرقة، وتدمير أمان الناس والفتك بتماسكهم وترابطهم.. واليوم.. وبنظرة سريعة على أوضاع وطننا العربي الكبير.. نجد اقتتالاً عنيفًا شرسًا استثمره أعداؤنا لمزيد من الفوضى والتشتت والبلبلة.. لمزيد من الإضعاف والانكسار

والإنهاك.. لمزيد من الخراب والدمار والتخلف عن ركب الحضارة..

فإن عدنا إلى سوريتنا الحبيبة.. نجد أيضًا.. شئنا أم أبينا.. أن الأزمة قد أدخلتنا في معسكرين اثنين.. معسكر يبارك هياج القطيع ويصفق له ويستثمر حركته لرغائبه، ومعسكر يتألم لكل ورقةٍ تتكسر تحت حوافر القطيع الهائج..

شئنا أم أبينا.. فقد جعلتنا الأحداث صنفين.. صنفًا يبرر العنف.. وصنفًا يبرر الرد على العنف بالعنف.. لقد انقسمنا على ضفتي نهر المعرفة.. ليرى أصحاب الضفة الأولى ما لا يراه أصحاب الضفة الثانية.. بذلك اصطففنا في صفين متقابلين، لكلٍ حجته وأفكاره، ودواعيه وبواعثه.. لكلٍ تصوراته الذهنية، وقناعاته الثابتة.. لكلٍ آماله وتمنياته، وحتى دعواته..

شئنا أم أبينا.. فقد تفرقنا وانقسمنا وتشتتنا.. وخسرنا.. ولعلنا أيضًا قد تنابزنا بالألقاب..

اختلفنا.. واختلفت قلوبنا.. وضعفنا.. بلى.. تنازعنا.. ففشلنا.. فذهبت ريحنا..

أناديكم.. يا أصحاب الطرف الآخر.. تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا..

دعونا لا نفرح بما لدينا.. دعونا نترك كل مشاربنا المختلفة ونجتمع على الارتواء من منهلٍ حقٍ وحيد..

دعونا ننبذ كل خلافاتنا.. ونمضي معًا على صراطٍ حقٍ مستقيم.. تعالوا ننتهِ عما نهى الله عنه.. إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (٤٦)﴾[الأنفال].

لا تنازعوا.. والتنازُع تخاصُم.. وتنازَعَ القومُ اخْتَصَمُوا وتجاذبوا الحجج فيما يتنازع فيه الخصمان ومع الخصام وتجاذب الحجج يفقد الطرفان التوافق والمحبة والاحترام.. في التنازع استلاب واقتلاع وتناطح، يورث حقدًا يدوم، وضغينةً تتنامى، وقهرًا لا يشفى إلا بثأر..

لا تنازعوا.. نهي واضحٌ صريحٌ.. فلا شيء يستحق انفراط العقد وتناثره؟.. ولا شيء يستأهل التنافر والعداء؟..

وها هي وصية رسول المحبة والسلام المسيح عيسى بن مريم: "من نازعك الثوب فاترك له الرداء".. لا تحضّ على نبذ النزاع فحسب، بل على البذل والسخاء لاقتلاع الطمع والشحّ وما يتفرع عنهما من الجذور من أعماق النفس الإنسانية الحريصة.

إنه محض متاع.. كل زينة الدنيا وبهرجها وزخرفها محض متاعٍ زائل.. الدنيا فانية ولا تساوي عند الله جناح بعوضة.. فإلى أين نحن ذاهبون؟؟.. وقد قضت سنة الله الثابتة في خلقه.. أن التنازع يودي إلى فشلٍ ذريع.. والفشل يودي إلى التلاشي تحت أقدام الهباء وانعدام الفاعلية والأهمية..

إلى أين نحن ذاهبون؟؟؟ وقد خسرنا بتنازعنا أعوامًا طوالاً كان الأجدر بها أن تكون أعوام اتحاد واجتماع

وتماسك، هي صفات البنيان المرصوص، من أجل البناء الحقيقي والازدهار الحضاري الذي يؤهلنا لحمل الرسالة.

-٧-

حول طاولة مستديرة

تعال نتحاور.. رغم أن دينك غير ديني.. فأنت تملك - حسب زعمك - بطاقةً بيضاء للدخول إلى الجنة بدون حساب، أما أنا، فأني أرجو أن أكون من المؤمنين الذين قال عنهم تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾[البقرة].

تعال نتحاور.. رغم أن لغتك غير لغتي.. فلغتك طائفية تفوح منها رائحة الدم، والقتل على الهوية، ولغتي مدنية تتآلف مفرداتها في وحدة وطنية، تجعل الوطن للجميع..

تعال نتحاور.. رغم أن رؤيتك غير رؤيتي.. فأنت ترى أن الشعوب العربية والإسلامية استيقظت لتريد، وأنا أرى أن الدول الكبيرة في العالم تتصارع مصالحها وتتقاطع فوق أراضي هذي الشعوب..

تعال نتحاور.. رغم أن وسيلتك غير وسيلتي.. فأنت تبرر استخدام السلاح والعنف بكل أشكاله للتغيير، وأنا أميل إلى التغيير السلمي واللاعنفي بأدواتٍ قانونية دستورية..

دعنا نجلس حول طاولة مستديرة..

تنتفي منها كل الامتيازات، وتتساوى عليها أهمية كل الأطراف المتحاورة..

تصلح كل نقطة منها للبداية كما يمكن أن تكون هي نفسها النهاية..

تكون لحركتنا جميعًا على محيطها نفس الخصائص، فالمسار واحد، والبعد عن المركز واحد، وأشكال ومساحات القطاعات التي يمكن أن نغطيها أثناء

الحوار تكون متشابهة متجانسة تصل إلى حد التطابق أحيانًا في حالة التوافق..

وحتى لو كنا على طرفي نقيض، وأبعد ما نكون عن بعضنا، فإن شيئًا مشتركًا واحدًا هو القطر يجمع بيننا لنلتقيَ دومًا في منتصفه..

دعنا نجلس هنا للحوار.. فنحن كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾سبأ

وهذا غاية الإنصاف والاعتدال والأدب في الجدال..

ولتكن لنا.. كلانا.. قضية مركزية واحدة.. هي الاجتماع على كلمة سواء بيننا.

-٨-

تنويهٌ.. لابد منه

هناك..في بقعةٍ مباركة.. على كوكبنا الجميل

بلاد تنعم بالعدالة والأمان والشرف..

لعلها.. في شيكاغو.. في أمريكا.. حيث الرعب والدم قراطية..

لعلها.. في الدانمارك.. حيث تطول حرية الرأي كل مقدّس..

لعلها.. في بلد غربي كفرنسا.. حيث يباح اغتصاب المنقبات..

أظن.. لا بل أعتقد أنها في كيانٍ صهيوني.. يمتلك حق البقاء – وحده – والباقون لا أحد.. بقرارٍ سماويٍ واصطفاءٍ من الله.. ولأن كل البقاع (المباركة) المذكورة آنفًا هي المثال والكمال والجمال.. لأنها الملاك الحارس للبشرية جمعاء.. لأنها الأم الحنون.. لأنها صاحبة قضية (إنسانيةٍ بحتة) لا صاحبة مصالح.. لأنها ذات نبلٍ طاغٍ وحنانٍ لا حدود له.. وشرفٍ يتطاول إلى عنان السماء.. لأنها ذات قلوبٍ رحيمةٍ.. رؤومٍ.. بالغة الحب لكل أطفال العالم.. وبخاصةٍ أطفال غزة.. لأنها أطيب وأروع وأشرف

حكوماتٍ في الوجود.. كان من واجبها الإنساني الشريف.. أن تعين الشعوب العربية (المسكينة)..

لذا... لذاااااا.. قررت هذه البلاد الكريمة بالغة الكرم.. الرحيمة بالغة الرحمة.. أن تساعد أطفال العرب (الأبرياء) ونساء المسلمين (الضعيفات) وجيل الشباب في الوطن العربي (الطامح)..

فبذلت المليارات من الأموال، جيشت الإعلام الخاص، تكاتفت يدًا بيد، سهرت الليالي في التخطيط، أمضت الأعوام في الدراسة (التآمر)، تداولت الآراء وبحثت عن الحلول، لبت نداء ضمائرها الحية، أصاخت السمع إلى صوت تعاطفها الوجداني واستسلمت أخيرًا.. استسلمت استسلامًا منقطع النظير.. إلى أمر واجبها تجاه الشعوب العربية (الحبيبة) فقررت.. (من أجلهم) حصريًا.. قررت.. أن تخلصهم من نير استبداد حكامهم.. لتدعهم هملاً.. أحرارًا..

أفرادًا في سفينةٍ لا ربّان لها تتقاذفهم أمواج الفوضى (الخلاقة)..

قررت.. من أجل الشعوب العربية حصريًا.. أن تكسر لها (تسقط) أطواق أنظمتها، طوقًا.. طوقًا أقصد نظامًا.. نظامًا، الواحد تلو الآخر.. فبدأت بالعراق.. والسودان.. و.. و.. وفي نيتها.. أن يعمّ خيرُها العميم العالمَ العربي من المحيط إلى الخليج..

لذا.. لذاااا.. فالشكر الموصول لك.. أيتها البلاد المباركة الحنونة.. فمعروفك.. اقتضى هذا التنويه.

-٩-

من ثمارهم تعرفونهم

ها هم.. يا نبي الله عيسى " عليك السلام ".. تحيط بنا اقتراحاتهم (البناءة.. غير الهدّامة) وتهدي خطواتنا آراؤهم (الحكيمة.. غير السفيهة) وتسيّر بعضنا فتاواهم (الجريئة.. غير المترهلة)..

ها هم.. وها هي ثمارهم.. أوطانٌ ممزقةٌ، تعلو سماءها سحب الدخان، وتتناثر على أرصفتها أشلاء الضحايا، يتكاثر في دروبها قطاع الطرق، يغادر سكانها الفرح والأمان، ويقتل الناس فيها بعضهم بعضًا...

ها هي ثمارهم يا سيدي يا نبي الله.. دمارٌ في كل مكان.. انفجاراتٌ قاتلة هنا وهناك.. انفلاتٌ الأمن في كل شارع.. زيادة بطالة.. غلاء أسعار.. أزماتٌ اقتصاديّة.. شروخ في كل أسرة..

قلت لنا: " احترزوا من الأنبياء الكَذَبة الذين يأتونكم بلباس الحملان ولكنهم من الداخل ذئابٌ خاطفة، من ثمارهم تعرفونهم، كل شجرة لا تصنع ثمرًا جيّدًا تقطع وتلقى في النار.. فإذا من ثمارهم تعرفونهم " إنجيل متى (١٥: ٧-٢٠) .. هي ذي ثمارهم.. يصنعون الموت للأبرياء.. يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.. إنهم.. الكَذَبة من الأنبياء.

المحتويات

الإهداء ٥
كمَثَل حبةٍ ٧
عمالقة في دنيا الأقزام ١٢
أيها.. الواعظ.. القريب ١٦
حتى لا تكون مطايانا ضعيفة ٢٣
من أسرار الحياة ٢٨
ماذا لو فقدنا حاسة الحب؟! ٤٤
احذروا الكلمة القاتلة ٤٩
.. لكل الناس.. ..... ٥٤
بذرة بحثٍ عن الحكمة ٦٦
آياتٌ.. مختلفٌ ألوانها ٧٤
وجهة نظر ٨٣
تأملات تحت قنطرة اليوبيل الذهبي ٨٥
أوراق من وحي الأزمة ٩٠
المحتويات ١١٣

للتعــريف

المؤلفة يمان عبد الحميد ياسرجي - مهندسة معمارية - صدر لها :

- عقد الياسمين / مجموعة قصصية /
- فسيفساء في خزينة الذات / وجدانيات وقصائد /
- لغز المحال / وجدانيات وقصائد /
- كن رائع الجمال / مقالات قصصية /
- جحا يزور التليتبيز / مسرحية للأطفال /
- كانوا أطفالاً مثلكم / قصص للناشئة /
- بصمات / مقالات قصصية /
- المفكرون الصغار / مسرحية للأطفال /
- حكايات للجيل القادم / قصص للناشئة /
- قلمٌ يكتب الحب / مقالات قصصية /
- في حضرة الوطن / وجدانيات وقصائد /
- كمَثَل حبة / تأملات فكرية /
- عندما يعصف الحب / رواية /
- البنكام / رواية /
- سياحة خاصة مع الحيوان في القرآن / تأملات فكرية /
- أبوح ولا أبوح / وجدانيات وقصائد /
- إيقاعاتٌ ملوّنة /قصص ومقولات قصيرة جدًا /
- سياحة خاصة مع الحيوان في القرآن /تأملات فكرية/
- قناديل الخريف / مجموعة قصصيّة/
- خارطة حبّ / مجموعة قصصيّة/
- ثورة طائر الفينيق / وجدانيّات وقصائد/

كتب قيد الطباعة :

- أيام الفتى عربي / مسرحية للأطفال /
- أناشيد الفتى عربي / مجموعة أناشيد /
- حروبٌ على تخوم الروح / تأمّلات فكرية /
- نحّولة تبدأ من جديد / مسرحيّة للأطفال /